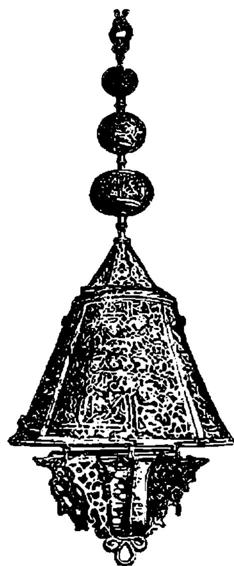
جمهورية مصر العربيـة – وزارة التعليم العالى – الإدارة العامة للنشاط الثقـافى والعلمى

مجلة المعهد المصرى

للدراسات الإسلامية فى مدريد



المجـلد العشرون

مدريد ١٩٧٩ – ١٩٨٠

الزهرات المنثورة
في
نكت الأخبار المأثورة

لابن سماك العاملى

أبي القاسم محمد بن أبي العلاء محمد بن سماك المالقى الغرناطى

(النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى)

تقديم

- ١ -

تمهيد :

كان من بين الكتب المخطوطة التى وقعت لمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد من تركة المستشرق الفرنسى الكبير الأستاذ ليفى بروفنسال بعد وفاته فى ٢٣ مارس سنة ١٩٥٦ — كتاب صغير يحمل عنوان « الزهرات المنثورة فى نكت الاخبار المأثورة » ، وهو منتزع من مجموع يضم بعض الرسائل الأخرى . ولم يكن فى صفحات الكتاب أى إشارة إلى اسم مؤلفه .

على أن الأسوأ من ذلك كان ضياع جزء كبير من النص يبلغ أقل قليلا من نصفه . فالكتاب حسبما شرط مؤلفه فى مقدمته مجموعة من الأخبار الطريفة حدد عددها بمائة ، ولكن هذه النسخة التى كانت ملكا للمستشرق الفرنسى الكبير كانت ناقصة ، فقد وقع فيها خرمان جسيمان ، يمتد أولهما من آخر الزهرة الخامسة عشرة حتى أول الزهرة الحادية والثلاثين ، وأما الثانى فيمتد من الزهرة الثانية والأربعين حتى الثالثة والسبعين ، أى أن الذى ضاع من زهرات الكتاب المائة نحو من سبع وأربعين ، غير أني استطعت أن أستكمل من كتاب

« نفح الطيب » للمقرى سبع زهرات نص على أنه نقلها عن هذا الكتاب ، فأصبح ما لدينا منه ستون زهرة فى المجموع ، وأما الباقى فقد ظل ثغرة لا سبيل إلى سدها ما لم تظهر من الكتاب مخطوطة جديدة .

وقد جعلنى ذلك أتردد فى نشر الكتاب ، غير أن طرافة هذا اللون من التأليف وما تبينته فى بعض أخباره من جدة لا تخلو من فائدة المشتغلين بتاريخ الأندلس وتراثها الفكرى فى القرن الثامن الهجرى — كل ذلك حملنى على أن أمضى قدماً فى إعداد هذا النص لما بقى من الكتاب ، وتقديمه للمعهد المصرى للدراسات الإسلامية حتى يضطلع بنشره . وكان أن فرغت من هذا العمل منذ سنوات وبعثت بالنص محققاً مع دراسة له ومحاولة للكشف عمن يمكن أن يكون صاحبه .

كان ذلك منذ أربع سنوات ، وانصرفت بعد أن ظننت أن مهمتى قد انتهت إلى شواغل أخرى . على أن إخراج الكتاب قد تأخر لظروف خارجة عن إرادتى حتى عرضت لى رحلة إلى مدريد فى سنة ١٩٧٦ بمناسبة مؤتمر المشتغلين بالدراسات الأندلسية والإسبانية وهو المؤتمر الذى نظمه المعهد الاسبانى العربى للثقافة وتفضل بتوجيه الدعوة إلىَّ للاشتراك فى أعماله . وكان جميلا لا أنساه لهذا المعهد الكريم وللأصدقاء الأعزاء العاملين فيه ، فقد أتاح الفرصة لى لكى أجدد العهد بعدد من الإخوان والزملاء ممن تربطنى بهم أواصر المودة والعمل المشترك .

وكان من جميل الصدف أن ألتقى فى المؤتمر بصديقة عزيزة وباحثة لها فى ميدان الدراسات الأندلسية جهود عظيمة جديرة بكل تقدير ، هى الدكتورة ماريا خيسوس روبييرا María Jesús Rubiera ، وكانت تعرف أننى فرغت من إعداد نص « الزهرات المنثورة » حسب مخطوطة ليفى بروفنسال الناقصة . فما كان منها بعد أن تبادلنا الحديث عن هذا الكتاب إلا أن وضعت بين يدىَّ مجموعة من اللوحات المصورة كانت مفاجأة سعدت لها كل السعادة واغتبطت

بها أشد الاغتباط . فقد كانت هذه اللوحات نسخة مصورة من مخطوطة أخرى كاملة لكتاب الزهرات محفوظة فى الخزانة العامة بالرباط . كما أهدت إلىَّ أيضاً بحثاً لها نشر فى مجلد الملتقى الثانى الإسبانى التونسى عنوانه « حول من يحتمل أن يكون مؤلفا لكتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية » ، وهو بحث سوف نرى أنه وثيق الصلة بكتاب « الزهرات » ومؤلفه .

وعدت بعد انتهاء أعمال المؤتمر إلى الكويت — وكنت أعمل حينئذ فى جامعتها — وفى أوراقى هذه الهدية الثمينة ، فعكفت على فحص تلك المخطوطة الجديدة ، فرأيت أنها تكمل ذلك العمل الذى اضطلعت به من قبل وقدمته للنشر على ما فيه من نقص ، وهكذا كتبت إلى صديقى وأخى الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم مدير المعهد المصرى أرجوه أن يبعث إلىَّ بنص الزهرات القديم حتى أعيد فيه النظر وأكمل ما فيه من نقص على ضوء هذه المخطوطة الجديدة .

وهكذا كان ، فقد عدت من جديد لإعداد الكتاب وتحقيقه كاملا ، فإذا كان فى ذلك فضل فإن مرجعه إلى كرم الصديقة الفاضلة ماريا خيسوس روبييرا التى آثرتنى بمخطوطها وضربت فى ذلك مثلا على التعاون العلمى الحق ، جزاها الله عنى كل خير ، ثم إلى الأخ الكريم الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم مدير المعهد لحرصه على نشر هذا الكتاب وعنايته به .

— ٢ —

عنوان الكتاب وأصوله :

عنوان الكتاب كما جاء فى الأصلين المخطوطين هو « الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة » . أما المقرى فقد سماه بين يدى ما نقله منه باسم « الأزهار المنثورة فى الأخبار المأثورة » ، وقد ارتضى ليفي بروفنسال هذا

العنوان فى المواضع التى استفاد منه فيها فى كتبه . ولكننا آثرنا العنوان المثبت على الأصلين المخطوطين ، والخلاف بين التسميتين هيِّن على كل حال .

وأما المؤلف فلم يرد اسمه فى مخطوطة ليفى بروفنسال التى كنت قد أعددت النص على أساسها فى البدء . وعلى الرغم من أن المقرى فى موسوعته الجامعة « نفح الطيب » قد عرف الكتاب ونقل منه فإنه بدوره لم يعرف مؤلفه ولم يفدنا بأى شىء حوله . وذكر الدكتور إحسان عباس فى تحقيقاته لطبعة النفح الجديدة أنه يرجح كون ابن سعيد (ت ٦٨٥ هـ . / ١٢٨٦ م .) هو مؤلف الكتاب ، وأنه ربما كان ذلك المجموع هو نفسه كتاب « الزهرات » الذى ينقل عنه ابن هذيل الغرناطى فى كتابه « عين الأدب والسياسة » (١) . والدكتور إحسان معذور فى هذا الاستنتاج الخاطىء ، إذ أنه لم ير الأصل المخطوط ، وإن كان ليفي بروفنسال — أول من عرف النص واستفاد منه — قد بين فى معرض ما أخذه منه أن مؤلف الكتاب كان غرناطيا يعيش فى القرن الثامن الهجرى (٢) .

وقد كنت عند إعدادى الأول للنص قد وقفت عند هذه المسألة وبذلت جهداً كبيراً فى محاولة للتعرف على من يمكن أن يكون مؤلف الكتاب . وكان من الواضح أنه لابد أن يكون من كتاب الدولة النصرية خلال النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، معاصراً للسلطان محمد الغنى بالله بن يوسف بن اسماعيل بن فرج ، خامس من تسمى باسم محمد من سلاطين بنى الأحمر فى غرناطة ، وهو الذى ولى العرش بعد مقتل أبيه سنة ٧٥٥ (١٣٥٤) وامتدت به الحياة حتى سنة ٧٩٣ (١٣٩١) ، وإن

---

(١) نفح الطيب ١ / ٤١٧ ، حاشية ١ .

(٢) E. Lévi-Provençal: L'Espagne Musulmane au X ème siècle, Institutions et vie sociale, Paris, 1932, p. 85.

كانت قد تخللت هذه الفترة الطويلة من الحكم ثلاث سنوات (٧٦٠ — ٧٦٣) خلع أثناءها عن العرش ، وظل منفياً فى المغرب حتى عاد إلى ملكه (١) . فتتبعت أسماء كتاب هذه الفترة وسير حياتهم ونشاطهم فى ميدان التأليف الأدبى ، وطرحت هذه الاحتمالات فى دراستى الأولى وإن لم يكن من الميسور أن أصل إلى تحديد اسم معين بين الأسماء الكثيرة التى كان يمكن أن يعد مؤلف الزهرات واحداً منها .

ثم أتت هذه المخطوطة الجديدة من الخزانة العامة بالرباط ، فقطعت الشك باليقين ، إذ أثبت عليها اسم المؤلف ، وهو « محمد بن أبى العلاء بن سماك » .

— ٣ —

أسرة بنى سماك العامليين فى مالقة وغرناطة :

أسرة بنى سِمَاك (٢) التى ينتمى إليها مؤلفنا (٣) ينتهى نسبها إلى قبيلة عاملة ، إحدى القبائل اليمنية التى نزلت الأندلس منذ قدوم طالعة بلج بن

(١) حول محمد الغنى بالله وفترة حكمه لغرناطة راجع الدراسة الجامعة القيمة التى اختصه بها الدكتور أحمد مختار العبادى : Dr. Ahmad Mujtār al-ʿAbābdī: El Reino de Granada en la época de Muhammad V, Madrid, 1973.

(٢) لست أدرى السبب الذى جعل كل المستشرقين الأوربيين الذين كتبوا عن هذه الأسرة أو بعض أفرادها يضبطون هذا الاسم بتشديد الميم (سِمَّاك Simmāk) ، فليس هناك ما يبرر هذا الضبط ، إذ لا معنى للفظ مكتوبا بهذه الصورة ، والصواب « سِمَاك » بكسر السين وتخفيف الميم ، وهو لفظ مشتق من سَمَكَ الشىء يَسْمُكُه سَمْكاً أى رفعه فارتفع ، والسِّمَاك ما سمكت به الشىء أى رفعته كالحائط والسقف . والسِّماكان نجمان نيران أحدهما السماك الأعزل والآخر السماك الرامح وهما من برج الميزان ، والأول منهما من منازل القمر (لسان العرب ، مادة س م ك) . وسنرى فى ترجمة ابن الخطيب لمؤلفنا بالذات كيف يستخدم هذا المعنى فى تورية لفظية أراد أن يعبر =

بشر القشيرى المعروفة باسم الطالعة الشامية سنة ١٢٥ هـ. (٧٤٣ م.) . وكانت هذه القبيلة تسكن فى منطقة الأردن ، فلما قدمت الأندلس نزلت فى إقليم رية (مالقة) . وإلى عاملة هذه ينتهى نسب أحد ولاة الأندلس الأقدمين وهو ثعلبة بن سلامة [١] . وعلى الرغم مما يذكره المؤرخون المتأخرون من علو مكانة بنى سماك وعراقتهم فإننا لم نجد ذكراً لأحدهم فى المعاجم المبكرة لتراجم مشاهير الأندلسيين مثل كتابى ابن الفرضى والحميدى ولا فى تواريخ الأندلس القديمة .

وأول من عثرنا عليه من شخصيات هذا البيت هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن سماك . ولد فى سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) ، وتفقه ببلده مالقة على أبى المطرف الشعبى ، وروى الحديث عن أبى على الغسانى ، ثم انتصب لتدريس الفقه والمناظرة عليه فى مدونة سحنون وغيرها . وقد شجر النزاع بعد ذلك بينه وبين بنى حسون رؤساء مالقة ، فخرج بسبب ذلك فاراً إلى غرناطة ، ثم جاز إلى مراكش فى الوقت الذى كان الصراع فيه دائراً بين المرابطين ودولة الموحدين الناشئة . ويظهر أنه انضم إلى دعوة الموحدين ، فولوه قضاء غرناطة فى سنة ٥٣٧ (١١٤٢ — ١١٤٣) ثم قضاء مالقة أيضاً . ولكن حياته لم تطل بعد ذلك ، إذ توفى فى سنة ٥٤٠ (١١٤٦) . وكان إلى جانب تبحره فى الفقه أديبا شاعراً مطبوعاً كثير النوادر . وقد نقل ابن

= بها عما يتوقع له من علو الشأن وذلك إذ يقول : « فإن انفسح مداه ، بلغت السِّماكَ يداه » (الكتيبة الكامنة ص ٣٠٠) .

(٣) للباحث الصديق الأستاذ خاثينتو بوسك فيلا مقال اختص به هذه الأسرة بعنوان « بنو سماك : أسرة توارثت القضاء فى مالقة وغرناطة » Jacinto Bosch Vila: Los Banū Simmāk de Málaga y Granada, Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos, XI, 1962, pp. 21-37. على أنه يؤسفنى أن أذكر أننى لم أتمكن من الاطلاع على هذا المقال والانتفاع منه .

(١) عن عاملة ومنازلها فى الأندلس انظر ابن حزم : جمهرة الأنساب ص ٤٢٩ — ٤٣٠

الخطيب قطعا من شعره ، كما أشار إلى مراسلات بينه وبين الكاتب المشهور الفتح بن خاقان صاحب كتابى قلائد العقيان ومطمح الأنفس [١] .

وقد أعقب عبد الله بن أحمد بن سماك عدداً من الأبناء عُرِفَ منهم ثلاثة : الأول سالم الذى لم تفدنا كتب التراجم عنه بشيء ، ولكننا نعرف ابنا له هو عبد المنعم بن سالم بن عبد الله أحد أعيان مالقة . وقد ترجم له ابن الزبير فى « صلة الصلة » وقال إنه كان راوية لسنن أبى داود وإنه ولد سنة ٦١٣ (١٢١٦) وامتدت به الحياة تسعين سنة حتى وفاته فى ٧٠٣ (١٣٠٤) . وذكر ابن الزبير أنه سأله الإجازة لأولاده فأجاز لهم [٢] .

وثانى هؤلاء الأبناء هو محمد بن عبد الله الذى يظهر أنه ولى قضاء غرناطة أيضاً للموحدين ، ونقل النباهى بعض خبره وخبر أسرته عن كتابى الملاحى وابن عسكر ، ولو أن حديثه عنه يختلط بالحديث عن أبيه . ويذكر ابن عبد الملك أنه كان فقيها ذاكراً للمسائل مشاوراً عارفاً بالأحكام ، وينص على أنه ولى قضاء مالقة فى سنة ٥٤٨ (١١٥٣) ، وأنه كان أول قضاتها فى دولة عبد المؤمن بن على . ولم يعرف المراكشى تاريخ وفاته ، وإنما اكتفى بالقول إنه كان حيا فى سنة ٥٥٥ (١١٦٠) [٣] .

وثالث هؤلاء الأبناء هو أبو جعفر أحمد بن عبد الله ، روى عن أهل بلده ، وكان أيضاً فقيها ذا حظ من الأدب والنظم . وتوفى سنة ٥٧٥ (١١٧٩ — ١١٨٠) [٤] . وأحمد هذا هو الذى نعرف عدداً أكبر من ذريته ،

(١) انظر فى ترجمته ابن الأبـار : التكملة ، بتحقيق كوديرا ، رقم ١٣٥٥ ؛ ابن الخطيب : الاحاطة ، بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ٣ / ٤١٠ — ٤١١ ؛ أحمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص ١٣٢ .

(٢) صلة الصلة ، رقم ٣٠

(٣) النباهى : المرقبة ص ١٠٥ ؛ الذيل والتكملة ، المجلد السادس ، رقم ٦٩٠ ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

(٤) ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، المجلد الأول رقم ٢٠٠ ص ١٣٤ .

فقد أعقب ابنا هو أبو محمد عبد الحق الذى سكن حصن بلش بشرقى مالقة Vélez-Málaga ولكن ابن الزبير الذى ترجم له لم يحدد لنا سنة وفاته (١) .

وكان لعبد الحق هذا ولدان : أولهما أبو جعفر أحمد ، وكان شيخاً صالحا عاقداً للشروط ، وهو من تلاميذ الإمام أبى القاسم السهيلى المالقى صاحب كتاب الروض الأنف فى السيرة النبوية . ولم يحدد المراكشى الذى أورد ترجمته سنة وفاته . إلا أن الرعينى يذكر فى برنامجه أنه لقيه وجالسه كثيراً بغرناطة وأنشده قطعا من الشعر فى مجلس معين يحدد تاريخه بالثامن من المحرم سنة ٦٣٦ (الموافق ٢١ أغسطس ١٢٣٨) مما يقتضى أن تكون وفاة أحمد بن عبد الحق بعد هذا التاريخ (٢) .

وأما الثانى فهو سماك الذى لا نعرف عنه إلا أنه عاد لحمل الاسم الأول الذى اشتهر به أبناء هذه الأسرة .

وقد أعقب سماك المذكور ولداً هو محمد ، نعرف عنه خبراً مختصراً يقول إنه « قرأ على أبى جعفر ابن الزبير وأبى عبد الله ابن رشيد (صاحب الرحلة) وغيرهما ، وكان مشهوراً بالإدراك والكفاية . ولى عدة جهات ووقعت له محنة ، ومات سنة ٧٦٠ (١٣٥٨ — ١٣٥٩) ، وله سبع وسبعون سنة » ومعنى ذلك أنه ولد سنة ٦٨٣ (١٢٨٤ — ١٢٨٥) . ومن الغريب أن هذا الخبر الوحيد عنه قد انفرد به كتاب مشرقى هو « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة »

---

(١) صلة الصلة ، رقم ١٤ . ويشير ابن الزبير فى أثناء هذه الترجمة إلى أنه تحدث من قبل عن بيت بنى سماك وسابقتهم فى العلم والخير ، ويظهر أنه أورد فى ذلك الموضع من كتابه تفصيلا لنسب هذه الأسرة وتعديداً لمن اشتهر منهم بالعلم والرواية . ولكن من المؤسف أن هذا الموضع من كتابه قد ذهب فيما ضاع من كتابه .

(٢) الذيل والتكملة ، المجلد الأول ، رقم ٣٠٦ ص ٢٣٧ ، برنامج الرعينى ، رقم ٧١ ص ١٤٩ — ١٥٠ .

لابن حجر العسقلانى[1] . وأغرب من ذلك أن ابن حجر يحيل فيه على ابن الخطيب ، غير أنا بحثنا عنه فى المجلدات الثلاثة التى نشرها الأستاذ عنان من « الإحاطة » ، ثم فيما بقى من الإحاطة المخطوطة (نسخة الاسكوريال ، رقم ١٦٧٣) فلم نجد أثراً لترجمة محمد بن سماك هذا[2] . على أننا لسنا واثقين من صحة تاريخ الوفاة المذكور فى هذه الترجمة ، إذ أن طبعة « الدرر الكامنة » التى بين أيدينا طبعة رديئة يكثر فيها التحريف والخطأ ولا تلتزم بالشروط الواجبة للتحقيق العلمى السليم .

وكان لمحمد بن سماك المذكور ولد يدعى كأبيه محمداً ، وكنيته أبو العُلاَ أو أبو العَلاَء الذى نعرف عنه قدراً أكبر من الأخبار بفضل الترجمتين اللتين اختصه بها ابن الخطيب وابن حجر[3] .

ولما كان أبو العلاء هذا هو والد مؤلف « الزهرات » فإننا سنوليه عناية خاصة منتفعين من هاتين الترجمتين اللتين أشرنا إليهما .

---

(١) الدرر الكامنة ، المجلد الثالث ، ترجمة ١٢١٧ (ط حيدراباد) وهي تقابل الترجمة رقم ٣٧٣٦ المجلد الرابع ص ٧١ من طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ ، وقد رجعنا فى هذه الترجمة إلى الدراسة القيمة التى قامت بها الباحثة ماريا لويسا أورنيدو عن « الأخبار الخاصة بتاريخ الأندلس وتراجم علمائها فى كتاب الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى » ، الرسالة الصغرى المقدمة لكلية الفلسفة والآداب بجامعة مدريد فى يونيه ١٩٦٤ (مطبوعة على الآلة الكاتبة) :

María Luisa Hornedo: Datos para la historia del Andalus, contenidos en la obra de «Al-Durar al-Kāmina», de Ibn Ḥaŷar al-ʿAsqalānī, Memoria de licenciatura presentada en la Facultad de Filosofía y Letras de Madrid, junio de 1964.

(٢) نرى فى هذا وفى كثير من التراجم التى أثبتها ابن حجر فى الدرر — نقلا عن ابن الخطيب — لبعض علماء غرناطة دليلا واضحاً على أن النسخة التى رجع إليها العالم المصرى من « الاحاطة » كانت أكمل من النسخ المخطوطة المعروفة اليوم وهى التى قام الأستاذ عنان على أساسها بطبع ما نشره من مجلدات الاحاطة .

(٣) الكتيبة الكامنة ، ترجمة رقم ٦٧ ، ص ١٩٨ — ٢٠٠ ؛ الدرر الكامنة ، المجلد الرابع رقم ٤٨٢ (وهى تقابل من طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ الترجمة رقم ٤٣٤٦ — ٤/٢٩٥ — ٢٩٦).

أما ابن حجر فإنه ينفرد عن ابن الخطيب بإيراد قائمة بأسماء شيوخه ، فيذكر منهم أبا الحسن بن أبى العيش وأبا عبد الله بن الفخار وأبا القاسم ابن جزى ، ونلاحظ أن هؤلاء هم كذلك أساتذة ابن الخطيب نفسه . ثم يذكر ابن حجر أنه كان لا يكف عن الدرس والقراءة ، وأن له كتبا كثيرة تدل على معرفة واسعة ونظر دقيق ولا سيما فى علم العروض . ويقول إنه كان من كتاب السلطان بديوان الإنشاء ، كما ينوه بثناء ابن الخطيب على فضله وعلمه ومعرفته بالأدب (١) . ثم ينشد له عدة قطع من الشعر ، وأخيراً يسجل تاريخ وفاته بالمحرم سنة ٧٥٠ (١٣٥٠) .

وأما ابن الخطيب فإنه يورد له فى الكتيبة ترجمة نورد فيما يلى أهم فقراتها : « الكاتب أبو العلاء محمد بن محمد بن سماك العاملى ، رحمه الله تعالى وعامله بفضله وكرمه ، مجموع خصل ، وفرع نشأ عن أى أصل ، ومشيح بنصل ، فى يوم فصل ، كتب مع الحلبة ، وشاركهم فى افتراع الهضبة ، وأنشد الشعر ، فأجرى بغير الخلاء ، وجعل دلوه فى الدلاء . فمن شعره يمدح السلطان ويذكر الواقعة البحرية بالروم :

فتح قضاه لملكك الرحمنُ ... لم تأت قط بمثله الأزمانُ (٢)
فلأى يوم سعادة أولاكه ... ذلت بعزة نصره الصلبان
بشرى كما فغم العبير لناشق ... وافترعن أزهاره البستان

---

(١) نكرر هنا من جديد ملاحظتنا بأن ابن حجر ينقل هذه المعلومات عن نسخة من الاحاطة ليست من النسخ المعروفة اليوم ، ولا سبيل للظن بأن ابن حجر ينقل هنا عن كتاب (الكتيبة) فليس فى ترجمة أبى العلاء بن سماك في هذا الكتاب شىء من هذه التفاصيل .

(٢) أورد ابن حجر فى الدرر الكامنة مطلع هذه القصيدة على هذا النحو :

فتح قضاه المالك الديان ... ذلت لعزة نصره الصلبان

وهو كما نرى ملفق من الشطر الأول من المطلع والشطر الثانى من البيت الثانى .

ومن قصيدة يمدح السلطان ويذكر فتح بعض الحصون :

بشرى بها صبح الهداية مسفرُ بشرى بها ليل الضلالة مدبرُ (١)
فتح تلقى النصر منه تحيــــة من لفظهـــا ماء البشاشة يقطر
فتحت سيوفك كُرْكُبُولَ وإنه فى الفتح عنوان لما هو أكبر (٢)

... إلى آخر القصيدة (٣) » .

ثم يقول ابن الخطيب : « وكتب إلىّ يهزنى بمجلس السلطان إلى إنجاده وإعانته على مراده :

يابن الخطيب من الذى بثنائه قد قام فى مرقى مناى خطيبـا
جدد عوائدك التى أنشقتـــنى من زهر نعمتها المنعم طيبـا
واهزز لنا غصن الخلافة يانعـا يسقط جنى نيل المراد رطيبـا
لا زلت ذا فضل علىَّ وحمده منى مطيلا لا يزال مطيبا » .

---

(١) أورد ابن حجر مطلع هذه القصيدة بهذه الصورة :

بشرى بها صبح الهداية مسفر من لفظها ماء البشاشة يقطر

ونراه من جديد يلفق البيت من شطرين من البيتين الأولين .

(٢) فى طبعة الكتبية بتحقيق الدكتور إحسان عباس ورد اسم الحصن « كريكول » وجاء فى الحاشية (ص ١٩٩) أن الاسم فى إحدى النسخ المخطوطة « كركيول » والقراءتان كلتاهما خاطئة ولو أن الثانية أقرب إلى الرسم الصحيح ، والصواب ما أثبتنــا ، والمقصود حصن كركبول ، وهو اليوم بلدة صغيرة تقع بين جيـــان وقرطبة واسمها الآن Carcabuey ، وهو نفس الحصن الذى سماه ابن حيان فى المقتبس (ط. ملتشور أنتونيا ، باريس ١٩٣٧) « حصن كركبولية » (ص ١٠٦ — ١٠٧) . ومما يجدر بالذكر أن لابن الخطيب قصيدة مثبتة فى ديوانه يهنىء بها السلطان أبا الحجاج يوسف النصرى (والد محمد الغنى بالله) بهذا الفتح نفسه . (انظر ديوان ابن الخطيب « الصيب والجهام والماضى والكهام » بتحقيق محمد الشريف قاهر ، الجزائر ١٩٧٣ ص ٢٤٤) . وقد حدد ابن الخطيب تاريخ هذا الفتح بأحد ربيعى سنة ٧٤٠ (أى خلال الفترة المتضمنة بين ٦ سبتمبر و ٣ نوفمبر ١٣٣٩) .

(٣) أورد ابن حجر بعد ذلك مطلعا لقصيدة لابن سماك انفرد به دون ابن الخطيب ، وأوله :

أما الفتوح فهذا بابهـا انفرجا لقد تفجر فجر النصر وانبلجـا

ونأخذ من هذه الترجمة أن ابن سماك كان قد توفى حينما كتب ابن الخطيب عنه هذه السطور بدليل ترحمه عليه ، هذا وإن كان من أترابه القريبين منه فى السن ، كما استخلصنا من اشتراكهما فى الأخذ عن مجموعة واحدة من الشيوخ . ومن الواضح أن ابن سماك المذكور كان من كتاب ديوان الإنشاء الذى كان ابن الخطيب يتولى رياسته منذ سنة ٧٤٩ (١٣٤٩) فى أيام أبى الحجاج يوسف ، وأنه كان من شعراء البلاط النصرى المتابعين للوقائع والأحداث الجارية فى غرناطة كما نرى فى اشتراكهما فى تهنئة السلطان بفتح كركبول سنة ٧٤٠ (١٣٣٩) . وكانت تربط ابن سماك بابن الخطيب علاقة طيبة وإن كان بين الرجلين ما بين المرؤوس والرئيس ، بدليل أن ابن سماك استشفع به حينما كتب إليه يهزه إلى إنجاده وإسعاده فى حاجة له إلى السلطان . ولا غرو فقد كان ابن سماك من جملة كتاب ديوان الإنشاء حينما كان ابن الخطيب وزيراً عظيم الجاه مرموق المكانة .

وابن الخطيب — كعادته فى تراجمه التى ضمنها « الكتيبة » — لا يهتم بإيراد تواريخ الميلاد والوفاة والأحداث الرئيسية فى سير من يترجم لهم ، وذلك لأن هدفه كان أدبياً محضاً . ولهذا فإن التاريخ الوحيد الذى لدينا حول وفاة ابن سماك هو الذى أورده ابن حجر فى « الدرر الكامنة » وهو المحرم سنة ٧٥٠ هـ. ولكن ما لحق هذه الطبعة من تحريف وتشويه يجعلنا لا نطمئن تماما إلى صحة هذا التاريخ ، ثم إننا نلاحظ أن ابن حجر كان قد حدد وفاة محمد بن سماك والد أبى العلاء المذكور هنا بسنة ٧٦٠ هـ. ، وعلى ذلك يكون أبو العلاء قد توفى فى حياة والده وقبله بعشر سنوات . وليس ذلك أمراً مستحيل الوقوع بغير شك ، ولكنه لا يخلو من الغرابة ، والمعتاد فى مثل هذه

الحالات أن ينص المترجمون على ملاحظة ذلك . وهذا هو ما يجعلنا متحفظين أمام هذين التاريخين الواردين فى ترجمتى ابن حجر ، ولسنا نستبعد أن يكون التاريخ الثانى محرفا عن ٧٧٠ [(١)] .

— ٤ —

أبو القاسم محمد بن أبي العلاء بن سماك
مؤلف « الزهرات المنثورة » :

ونأتى فى النهاية إلى آخر من نعرفه من بنى سماك ، وهو مؤلف الكتاب الذى نقدم له بهذه الصفحات . ونعنى به ابن الذى فرغنا من الترجمة له : أبا القاسم محمد بن أبى العلاء محمد بن محمد بن سماك العاملى . وليس بين أيدينا من أخباره إلا الترجمة التى أفردها له ابن الخطيب فى « الكتيبة » فى القسم الخاص بطبقة الكتاب الشعراء . وفيها يقول [(٢)] :

« من كتاب الدولة ، فاضل نجيب ، ولدواعى المجادة والاجادة مجيب ، ونوارة مرعى خصيب ، وفائز من سهام الإدراك بنصيب . خصاله بارعة ، ونصاله شارعة ، وشمائله إلى نـداء الفضائل مسارعة ، على حداثة يندر معها الكمال ، وتستظرف الأعمال ، فإن انفسح مداه ، بلغت السماك يداه » .

---

(١) بعد أن كتبنا هذه السطور خطر لنا أن تاريخ وفاة أبى العـلاء بن سماك الذى حدده ابن حجر بالمحرم سنة ٧٥٠ يمكن أن يكون صحيحاً وأن ما استغربناه من أمر وفاته فى حياة أبيه وقبله بعشر سنوات لا يستبعد إذا قررنا أن سنتى ٧٤٩ و ٧٥٠ كانتا هما اللتان وافقتا انتشار وباء الطاعون الهائل الذى دهم العالم الاسلامى كله ومعظم القارة الأوربية أيضاً . وقد توفى فى هذا الوباء كثير من أهل غرناطة ، فقد يكون ابن سماك هذا ممن أصيبوا فيه . وقد اختص ابن الخطيب وتلميذه الأديب الشاعر ابن خاتمة ذلك الطاعون برسالتين تدلان على مدى ما أوقعه من ذعر فى نفوس أهل غرناطة .

(٢) الكتيبة الكامنة ، رقم ١٠٠ ، ص ٢٩٩ — ٣٠١

وليس فى هذه الترجمة كما نرى كثير من المادة التاريخية ، ولكنها مع ذلك لا تخلو من غناء ، وأهم ما نستفيده منها هو أن ابن سماك — شأنه فى ذلك كشأن والده — كان من كتاب ديوان الانشاء ، إلا أنه كان صغير السن ، حديث عهد بتولى منصب الكتابة ، يدل على ذلك الأسلوب « الأبوى » الذى يتحدث به المؤلف عما توسم فيه من مخايل النجابة وعما يتنبأ له به إذا امتد به حبل العمر ، فإشارته إلى « الحداثة » وتعبيره عنها بأنه « نوارة مرعى خصيب » تدل دلالة واضحة على أن أبا القاسم كان آنذاك فى ريعان الشباب . ويظهر أنه كان قد التحق بخدمة ديوان الانشاء الذى كان يعمل فيه أبوه أبو العلاء قبل جواز ابن الخطيب إلى المغرب فى جمادى الآخرة سنة ٧٧٣ (ديسمبر سنة ١٣٧١ — يناير ١٣٧٢) بقليل . ونحن نعرف أن ابن الخطيب ألف كتاب « الكتيبة » بأخرة من عمره فى جمادى الآخرة سنة ٧٧٤ (ديسمبر ١٣٧٢) . ونحن نتصور أن ابن سماك كان آنذاك فى سن تتراوح بين العشرين والثلاثين مما نرجح معه أن يكون مولده فى نحو منتصف القرن الثامن الهجرى . وقد سبق لنا أن نقلنا ما أورده ابن حجر حول تاريخ وفاة أبيه وجده . فلو صح ذلك — ولسنا نثق تماماً فى صحته — لقدرنا مولد أبى القاسم قبل سنة ٧٥٠ بقليل ، وهى سنة وفاة أبيه ، ثم يكون قد تربى فى كنف جده الذى امتدت به الحياة بعد ذلك نحواً من عشر سنوات ، وأن عمره كان حينما كتب ابن الخطيب ترجمته فى « الكتيبة » ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين .

ونحن نعرف أن ابن الخطيب كتب هذا الكتاب متخذاً نفسه محوراً له ، فهو يُدِلُّ فيه بما كان له من فضل على الوسط الأدبى فى الأندلس ، ولهذا فإن معظم ما أورده فيه من نصوص كان إما موجها إليه أو مما أثار هو القول فيه أو اقترحه على ناظميه . كذلك كان من أهدافه فى الكتاب إعادة تقويم الأشخاص الذين اتصلت حبالهم بحباله ، وكان من بينهم من تنكروا له وأخبوا

وأوضعوا فى التآمر عليه بعد فراره من الأندلس ، من أمثــال ابن الحسن النباهى وابن زمرك . وكان قد ترجم لبعض هؤلاء فى « الإحاطة » تراجم أسبغ فيها عليهم حلل المديح ، فأراد فى هذا الكتاب أن يشفى غليله من هؤلاء وأن يعيد تقويم سلوكهم وشخصياتهم بقــدر ما عاملوه به إحسانا أو إساءة . ونحن نرى مثــلا لذلك فى ترجمتيه لابن زمرك ولأبى الحسن النباهى اللذين استبلغ فى ذمهما ، ناقضا بذلك ما كان سطره من قبــل فى « الإحاطة » من الثناء عليهما .

وإنما نقول ذلك لأننا نرى فى ثناء ابن الخطيب على أبى القاسم بن سماك ما يدل على أن هذا الأديب ظل وفيــاً لأستاذه ابن الخطيب : لم يتنكر له ولم يسع فى إذايته كما فعل غيره ممن دانوا له بكثير من فضل التعهد والرعاية .

وقد أورد ابن الخطيب فى ترجمته لأبى القــاسم بن سماك قصيدة وجهها أديبنا إليه [١] ، وفيها يتغنى ببلاغة أستاذه وسمو بيانه ، إذ يقول منها :

هذا أوان حــلال السحر في كلم ... هن الدرارى وباسم الدر نسميها
أنوار علـم يفوت الفـكر مدركها ... إن أبصرتها عيون الشهب تدميها
من عليــة فى سماء المجد طـالعة ... من للكواكب علوا أن تساميهــا
تظــــل أندلس تزرى بمنشئهــا ... على العراق وناشيها وناميهــــا
قد كنت أوسعها حمــدا وأشكرها ... وإنما العجز قد أعيـــا مراميها
لكن إذا نسبت لابن الخطيب فقد ... كفـانى الفخر منها أن أسميهــا
له الحقيقة منهــــا وهو مظهرها ... وإنمـــا لهم منها أساميهـــا

ولهذه القصيدة مناسبة طريفة تطلعنا على لون من ألوان المساجلات الأدبية التى كانــ ابن الخطيب يديرها فى غرناطة ويستثير تلاميذه وناشئة المتأدبين

(١) الكتيبة ص ٣٠٠ — ٣٠١

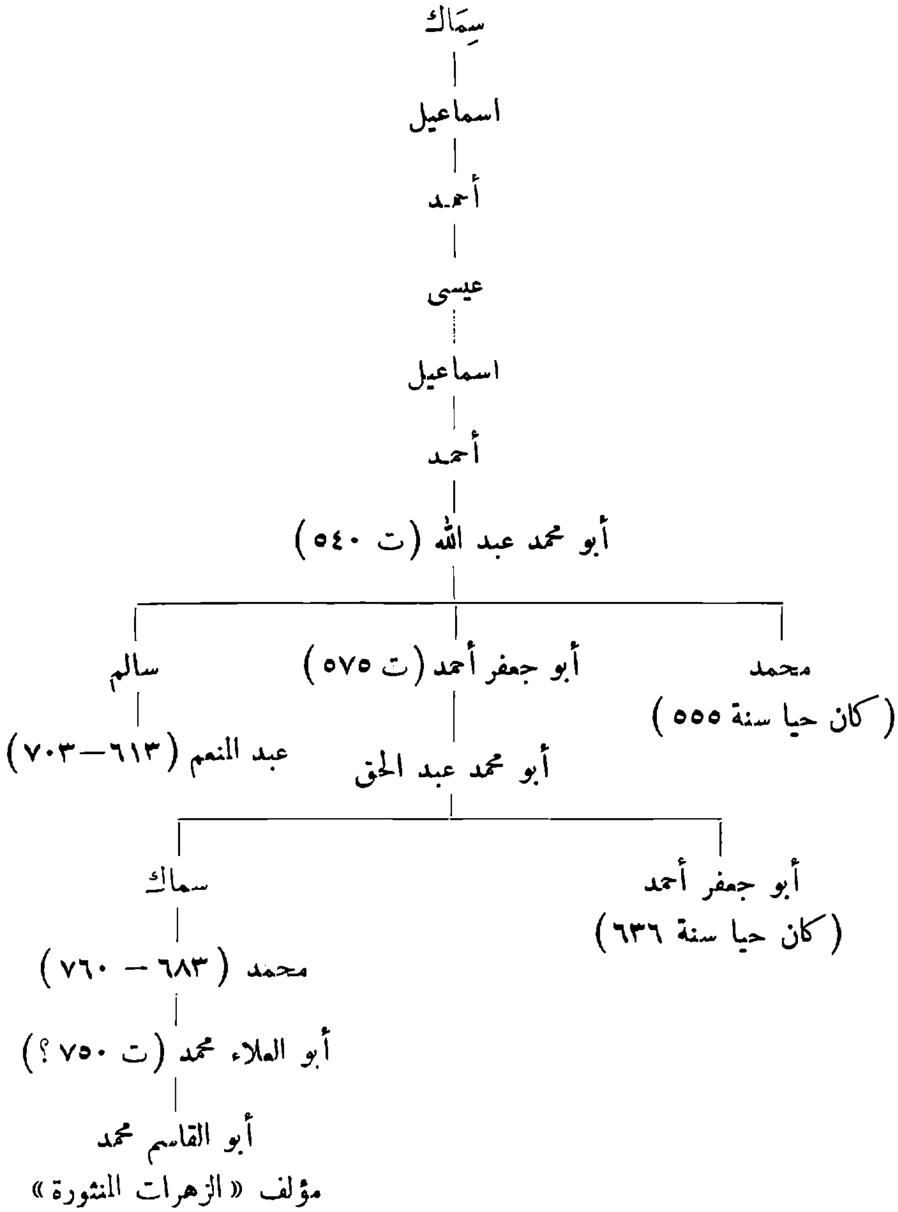
المحيطين به على المشاركة فيها . فقد جاء فى تقديم القصيدة : « ومن شعره وقد كلف الكتاب بلزوم ، وشد حيزوم[١] ، حسبما تكرر فى أسماء نظرائه .. الخ » .
وربما بدا النص هكذا غامضاً بعض الشىء ، ولكن الذى يرجع النظر المتأمل فى صنعة القصيدة ويطالع سائر تراجم الكتيبة يمكن له أن يتفهم ما رمى إليه ابن الخطيب . فالقصيدة كما نلاحظ « لزومية » أى أن الشاعر يلتزم فيها حرفا قبل حرف الروى (الهاء) وهو هنا حرف الميم . وتفسير ذلك أن ابن الخطيب كان قد نظم على ما يبدو قصيدة من هذا البحر والروى وجه بها إلى تلمسان ، والتزم فيها حرفا قبل حرف الروى[٢] . ويظهر أن القصيدة قد ظفرت بإعجاب الأوساط الأدبية هناك ، فطلب إلى ابن الخطيب أن يستثير قرائح شعراء الأندلس لكى ينظموا على هذا النسق فى معارضة قصيدته ، على أن يلتزم كل شاعر بحرف من حروف المعجم قبل الهاء ، فاختار كل شاعر حرفا ، أو لعله كلف من قِبَلِ ابن الخطيب ، بحرف معين . وأثبت مؤلف الكتيبة نماذج من خمس قصائد من هذه المعارضات اللزومية لخمسة شعراء كلهم من تلاميذه المعجبين به ، وقصائدهم كلها مختتمة بمدح شيخهم ابن الخطيب والإشادة ببراعته فى النظم على هذا النسق . وكان ابن سماك أحد هؤلاء الخمسة[٣] . وهذا مثل من الأمثلة التى كان ابن الخطيب يدرب فيها تلاميذه على قول الشعر ويحركهم له ويستحثهم على إعمال قرائحهم فيه ، مثيراً التنافس بينهم على الإجادة .

---

(١) فى الأصل المطبوع : « وشد جبر حيزوم » ، ونظن أن كلمة « جبر » مقحمة إذ لا معنى لها فى السياق .

(٢) يقول ابن الخطيب فى ترجمة أبى القاسم بن قطبة : « قال فى الغرض الذى نظمت فيه الحلبة من الأبيات اللزوميات الموجهة إلى تلمسان حسبما ثبت فى أسمائهم » (الكتيبة ص ٢٩١) .

(٣) هم — فضلا عن أبى القاسم بن سماك — : أبو على حسين بن عبد الحكيم بن تدرارت التينملى ، وحرف اللزوم فى قصيدته القاف (ص ٢٠٩) ؛ وأبو القاسم بن قطبة ، وحرف اللزوم عنده الباء (ص ٢٩١) ؛ وأبو القاسم محمد بن أبى عاصم ، وحرف اللزوم عنده القاف (ص ٢٩٨) ؛ وأبو العباس بن الشريف أبى القاسم الحسنى ، وحرفه الحاء (ص ٣٠٢) . أما ابن سماك فإنه التزم كما رأينا حرف الميم .



شجرة نسب بنى سِمَاك العامليين

وغنى عن القول أن نذكر أن ابن سماك حينما كتب شيخه ابن الخطيب عنه تلك السطور لم يكن قد ألف بعد كتاب « الزهرات المنثورة » . وأن هذه السطور القليلة هى التى قدمت لنا المعلومات الوحيدة حول مؤلفنا وحياته .

أما سنة وفاته فلم يتبين لنا شىء حولها . ولكن من الواضح أن الجزء الأكبر من حياته لابد أن يكون قد درج خلال النصف الثانى من القرن الثامن ، فكان ابن سماك معاصراً لذلك الجيل من تلاميذ ابن الخطيب الذين تخرجوا على يديه وحملوا شعلة الثقافة العربية فى غرناطة من بعده من أمثال أبى الحسن النباهى وابن زمرك وابن خاتمة وابن هذيل .

— ٥ —

زمن تأليف كتاب « الزهرات » :

من الواضح بعد ما ذكرناه حول حياة أبى القاسم محمد بن سماك مؤلف كتاب « الزهرات » أن تأليف الكتاب لابد أن ينحصر بين سنة ٧٧٤ (١٣٧٣) وهو الوقت الذى كان ابن الخطيب يؤلف فيه « الكتيبة » ووفاة السلطان النصرى محمد الغنى بالله (٧٩٣/١٣٩١) الذى طرز الكتاب باسمه . ونتصور أن الكتاب — وهو مجموعة من المختارات لا تبدو فيها شخصية المؤلف قوية واضحة — أقرب إلى أن يكون من نتاج الشباب ، ونرجح أن يكون راجعاً إلى هذه السنوات التى تلت وفاة ابن الخطيب مباشرة أى أواخر العقد الثامن وأوائل العقد التاسع .

وكانت غرناطة بنى الأحمر قد بلغت خلال هذه السنوات أوج عظمتها وقوتها السياسية والعسكرية ، يبدو ذلك واضحاً سواء فى سياستها الافريقية أو

فى علاقاتها مع جاراتها النصرانية . أما فى الشمال الافريقى فقد كان سلطان المرينيين قد تضعضع بصورة واضحة منــذ وفاة السلطان أبى فارس عبد العزيز فى شهر ربيع الآخر سنة ٧٧٤ (اكتوبر ١٣٧٢) . وتمكن السلطان النصرى بعد ذلك من احتلال جبل طارق وإلغاء منصب « شيخ الغزاة المغاربة » الذى كان يتمثل فيه ضرب من الوصاية العسكرية المرينية على الأندلس ، وتم ذلك فى نفس السنة التى قتل فيها ابن الخطيب بتدبير من مخدومه السابق سلطان غرناطة (٧٧٦/ ١٣٧٤) . ثم يستولى الغنى بالله على سبتــة وتأتى بعد ذلك سلسلة من أعمال التدخل الصريح من جانب الملك الغرناطى فى شؤون المغرب حتى يصبح هو المتصرف فى خلع سلاطينه وتوليتهم على هواه ، وتستمر هذه السياسة حتى نهاية حكم محمد الغنى بالله .

وأما بالنسبة للعلاقات بين غرناطة والممالك المسيحية فإن النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى يوافق أطول فترة من السلام نعمت بها غرناطة النصرية ، ولا شك فى أن ذلك يرجع إلى الكفــاءة السياسية النادرة التى عالج بها محمد الغنى بالله أمور سياسته الخارجية مع مملكتى قشتــالة وأرغون ، مراوحا بين إظهار القوة كلما تمكن من ذلك والمداراة فى أغلب الأحوال ، هذا وإن كان الفضل فى وضع هذه السياسة إنما كان يرجع إلى وزيره السابق وغريمه بعد ذلك لسان الدين بن الخطيب نفسه الذى يقول فى وصف هذه السياسة قبــل مغادرته غرناطة بقليل : « وشرعت فى عقد السلم مع العدو لسنين ، ورتبت الأمر ترتيب الآباء للبنين ، ورجوت إحسان الله لى »[(١)] . وأعان على ذلك ما اتفق من تزايد ضعف مملكة قشتالة على عهد ملوكها من أسرة تراستمارا

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الأندلسى ، بتحقيق ليفى بروفنسال ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٣١٧ ؛ وانظر دراسة الدكتور مختار العبادى التى أشرنا إليها من قبل ص ٥٦ وما بعدها .

Trastámara . وهكذا تمكنت هذه الدولة الإسلامية الصغيرة من أن تتمتع بهيبة أكبر بكثير من حجمها ومن قوتها الفعلية إزاء جاراتها النصرانية[١] .

ولو أننا تأملنا كتاب « الزهرات » الذى بين أيدينا لرأينا المؤلف يشير إلى هذا الجانب من سياسة غرناطة الخارجية إشارة صريحة واضحة ، وذلك إذ يقول متحدثا عن سلطانه محمد الغنى بالله الذى يهدى إليه الكتاب : « . . . والمدارى بحسن سياسته الناجحة لِطَائِفِ كفارها . فها نحن فيها بين بحر متلاطم الأمواج ، وسيف عدو وافر الجموع كثير الأفواج » .

وقد كان لهذا السلام الذى نعمت به غرناطة خلال هذه السنوات أثر طيب على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، فقد سادها الاستقرار والرخاء ، وهو ما يسجله ابن سماك فى خاتمة الكتاب إذ يقول :

« فالخيرات عندنا موفورة ، والأرزاق مستدرة ، والمنة دائمة بحول الله ومستمرة ، وكلمة الإسلام فيها ثابتة إلى يوم الدين ومستقرة ، ورعيتها فاقت رعايا الملوك فى الثراء والسعة ، واغتبطت بالاستذراء فى كنف الأمن والدعة ، ففشت العمارة ، وحسنت الشارة ، ونمت المكاسب ، وفرهت المراكب ، وعزت الجوانب ، وترتبت المراتب ، وأجزلت المواهب ، وخفت النوائب ، وتألفت على الطاعة المذاهب ، فحالنا فيها — معشر المسلمين — أحسن الناس حالا ، وأعمهم صلاحا ، وأقلهم جناحا ، وزماننا فيها أبهج زمان ، فليس له من ثان ، ووطننا والحمد لله أبعد وطن عن السوء وأدفعه للحدثان » .

---

(١) عن سياسة غرناطة الخارجية وعلاقاتها بدول المغرب وبدولتى قشتالة وأرغون انظر كتاب الدكتور مختار العبادى ص ٥٥ — ١٠٩ ، ؛ وانظر موجزاً طيبا لهذه السياسة فى كتاب ميجيل أنخل لاديرا : غرناطة : تاريخ بلد إسلامى

Miguel Ángel Ladera: Granada: Historia de un país islámico, Madrid, 1969, pp. 94-100.

وقد يكون فى هذه العبارات شىء من الإفراط فى التفاؤل والإسراف فى رسم صورة مذهبة لغرناطة فى أيامه ، حتى إن ابن سماك يرى زمانه أبهج زمان ووطنه أبعد الأوطان عن السوء ، بل إنه قبل ذلك يصف جزيرته الأندلسية بأنها « جنة الدنيا » ، ومصره « قيروان الأمصار » . ولا ننس أن المؤلف يصل كلامه هذا بالتمدح بصفات سلطان غرناطة والإشادة بحسن سياسته وبسهره على مصالح رعيته ، مما يلقى على هذه الكلمات شبهة التزلف الذى لا يؤمن معه تصوير الأشياء على غير حقيقتها . ومع ذلك فنحن لا نخلى وصفه هذا من الصدق جملة ، فالأديب مهما دعاه تقربه إلى ممدوحه للاسراف والمبالغة فلسنا نخاله يحيل الأمور عن وجوهها أو يقلب الحقائق قلبا كاملا ، وتأمل أحوال غرناطة خلال السنوات التى نرجح فيها تأليف الكتاب يدل على أنها كانت تجرى على سنن الاستقامة والصلاح ، وعلى أن المؤلف لم يبالغ كثيراً حينما قدم لنا هذه الصورة المشرقة المتفائلة لوطنه الأندلسى .

وتستوقف نظرنا هذه العبارة التى يتحدث فيها المؤلف فى الفقرة التى نقلنا نصها عن « فُشُوِّ العمارة ، وحسن الشارة » ففيها تعبير يصدقه الواقع التاريخى عن ذلك الاهتمام الكبير الذى أولاه السلطان الغنى بالله للأعمال المعمارية والمنشآت الجليلة ، فقد ساد غرناطة خلال هذه السنوات ما يسميه الأستاذ غرسية غومس بحق « حمى البناء والعمارة » (١) . وقد كانت هذه الفترة هى التى شهدت تجميل عمارة قصر الحمراء وإعطاء هذا الأثر المعمارى العظيم صورته النهائية ، فضلا عن عدد كبير من المنشآت الأخرى .

---

(١) انظر دراسته عن « ابن زمرك شاعر الحمراء » فى كتابه « خمسة شعراء مسلمين »
Emilio García Gómez: Cinco poetas musulmanes, Col. Austral, pp. 200-201.
وانظر كذلك دراسة الدكتور مختار العبادى عن مملكة غرناطة فى عهد محمد الغنى بالله ص ٢١٣ وما يليها .

– ٦ –

الهدف من تأليف الكتاب :

كتاب « الزهرات المنثورة » مجموعة من الأخبار والطرائف والمواعظ مما قصد به المؤلف إلى تقديم مادة لتثقيف المتأدبين من الأمراء وأبناء السلاطين ، مادة يودعها المؤلف خلاصة لقراءاته فى كتب الأدب التى تضم أطرافا من كل فن ، ويبدو الهدف التربوى التهذيبى بشكل خاص فى الزهرات الأولى التى تدور حول السلطان وسياسة الرعية وواجبات الحاكم والمحكومين .

وهذا النوع من التأليف قديم عرف فى الشرق الإسلامى منذ أوائل العصر العباسى ، فقد كتب فيه ابن المقفع والجاحظ وأفرد له ابن قتيبة فصولا كثيرة من كتابه « عيون الأخبار » ، وانتقل إلى الأندلس منذ عصر مبكر ، وكان من أول المؤلفين فيه ابن عبد ربه القرطبى (ت ٣٢٨/ ٩٤٠) صاحب كتاب « العقد » الذى نجد فصوله الأولى منذ كتاب « اللؤلؤة فى السلطان » تستهدف ما يمكن أن يسمى بالتربية السياسية ، ولو أن الكتاب يجمع إلى جانب ذلك مواد أخرى تؤلف منه ما يشبه أن يكون موسوعة ضخمة فى شتى ألوان المعارف .

ومما يمثل هذا الطابع فى التأليف فى الأندلس فى العصور التالية كتاب « سراج الملوك » لأبى بكر محمد بن الوليد الطرطوشى (ت ٥٢٠/١١٢٦) ، وموضوعه سياسة الملوك وعلاقاتهم برعيتهم فى السلم والحرب وما يجب أن يتحلوا به من فضائل ، مع ضرب الأمثال وإيراد كثير من الوصايا والمواعظ .

ويطول بنا الأمر لو حاولنا أن نستعرض ما كتب فى هذا الموضوع فى الأندلس حتى القرن الثامن الهجرى ، ولكننا ننبه إلى أن من أقرب ما كتب

فيه إلى عصر مؤلف الزهرات عدة رسائل للوزير الغرناطى أستاذ ابن سماك : لسان الدين بن الخطيب ، وقد احتفظ لنا المقرى منها برسالته فى « السياسة » التى كتبها فى صورة مقامة (١) ، ولا شك فى أن ابن سماك قد عرف هذه الرسالة واستفاد منها فى اختياره لبعض الأخبار التى قصد منها إلى رسم صورة مثالية للحاكم الإسلامى .

وهناك كتاب آخر يستحق منا وقفة متأنية إذ أن مؤلفه كان معاصراً لابن سماك ، بل وزميلا له فى العمل بديوان الإنشاء للسلطان النصرى محمد الغنى بالله . أما المؤلف فهو أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن هذيل الغرناطى (٢) وهو كاتب لا نكاد نعرف عنه شيئا على الرغم من الكثرة النسبية لما وصل إلينا من آثاره ، وكتبه تدل حقاً على مستوى رفيع من الثقافة والعلم . ومن هذه الكتب « حلية الفرسان وشعار الشجعان » الذى نشره الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فى القاهرة ، وهو القسم الثانى من كتابه « تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس » الذى نشره المستشرق الفرنسى لويس مرسييه Louis Mercier بطريقة الفوتوتيب سنة ١٩٣٦ . وأما كتاب ابن هذيل الذى نرى فيه مشابه كثيرة من « زهرات » ابن سماك فهو « عين الأدب والسياسة ، وزين الحسب والرياسة » ، وهو كتاب ظفر منذ قديم بعناية الناشرين ، فقد طبع بالقاهرة

---

(١) نفح الطيب ٦ / ٤٣١ — ٤٤٥ .

(٢) حول ابن هذيل انظر M. Casiri: *Bibliotheca arabico-hispana*, II, pp. 29, 329.
Pons Boigues: *Ensayo*, n.° 292, pp. 332-333.
Brockelmann: *Geschichte*, Suppl. II, p. 379.
والمصادر المثبتة فى هذه المراجع ، وانظر كذلك تقديم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن لنشرته لكتاب « حلية الفرسان وشعار الشجعان » لابن هذيل ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٧ — ١٩ . ولم تفدنا المصادر بتاريخ مولد ابن هذيل ووفاته ولكن يستخلص من آثاره العلمية أنه عاش خلال النصف الثانى من القرن الثامن ، فقد أهدى كتابه تحفة الأنفس للسلطان محمد الغنى بالله فى سنة ٧٦٣ (١٣٦٢) وأهدى حلية الفرسان لمحمد المستعين بالله حفيد محمد الغنى بالله الذى حكم غرناطة بين سنتى ٧٩٤ و ٨١٠ (١٣٩٢ — ١٤٠٨) .

ثــلاث مرات : سنة ١٨٨٥ ، ثم ١٩٠٠ ، ثم ١٩٣٨ . والكتــاب يضم منتخبات من نوادر الأخبار والأمثال والحكم والمواعظ مما يسهل على المتعلمين حمله . فهو من هنـا يتفق إلى حد بعيد مع « زهرات ابن سماك » فى طريقة التأليف وفى الهدف منه (١) . بل إن هناك اشتراكا يصل إلى حد التطابق فى بعض النصوص التى يوردها الكتابان (٢) . ومن غريب الاتفاق أن ابن هذيل ينقل نصوصاً من كتاب يدعوه « الزهرات » ولكنه ينسبه إلى ابن سعيد (٣) . أما أوجه التشابه التى أشرنا إليها بين الكتابين فربما أدى إليها تشابه الموضوع واتحاد المصادر ، إذ معظم ما جاء فيهما منقول من كتب الأدب العامة سواء منها المشرقية والأندلسية .

غير أن منهج كاتب « الزهرات » فى تقديم هذه المواعظ والأخبار يختلف عن منهج سابقيه ، فهو يسلك فى إيرادها سبيــل الإبلاغ فى الاختصار ، وهو يقدمها بغير أدنى تعليق منه ، وكأنه يرى أن كل خبر يكفي فى تقديم العظة بنفسه . وهو يتفق فى هذا مع روح العصر الذى كانت الثقافة العربية خلاله

---

(١) انظر ما جاء فى مقدمة الزهرات : « فإن للاطلاع على أخبار المتقدمين ، ومن سلف من خيار السالمين ، لسلاة للنفس ، واستجلابا لحصول الأنس ، لما يتخلل ذلك من نوادر الأخبار ، ويفيد من المواعظ والاعتبار ، ولما يشتمل عليه من ضروب الفوائد ، ويوقظ إليه من الهداية إلى جميل السير وكريم المحامد ، لا سيما أخبار الملوك والأمراء ، والحجاب والوزراء . . . الخ » . وقارن ذلك بقول ابن هذيل (عين الأدب ، الطبعة الثالثة ص ١٢٩ — ١٣٠) : « وليس يكمل أدب المرء حتى يعرف المثل السائر ، والبيت النادر ، وما يحكى عن أهل العصور من الأخبار العجيبة ، والمعانى الغريبة ، فنى ذلك العلم بالأمور والعقل المكتسب ، والأدب الصادر عن ذوى المروءة والحسب ، ولم تزل الحكايات والأخبار تذكر فى معرض الاعتبار ، وتورد موارد الاستبصار » .

(٢) قارن ما جاء فى الزهرة الثـانية (تلخيص بزرجمهر الحكمة لكسرى أنو شروان فى اثنتى عشرة كلمة) وما ورد فى عين الأدب ص ١٣٠ — ١٣١ ؛ وما جاء فى الزهرة الثالثة (حول طبقات الرعية) وعين الأدب ص ٦٨ .

(٣) انظر عين الأدب ص ١٤٤ ، ١٦٣ . وإذا كان المقصود هنا على بن موسى بن سعيد صاحب كتاب المغرب (ت ٦٨٥/١٢٨٦) فإننا لا نعرف كتاباً له بهذا العنوان .

سائرة فى طريق النضوب وفقد معين الأصالة ، فالمؤلفات إما مطولات جهد المؤلف فيها هو الجمع أو على الأكثر التذييل والتعليق ، أو مختصرات تسعى إلى تيسير الجهد على المتأدبين ، فتقدم إليهم خلاصة موجزة تغنيهم عن قراءة الكتب المطولة . ولعل من أبرز من يمثلون هذا الاتجاه إلى الإسراف فى الاختصار مؤلفا من الجيل السابق على جيل أديبنا ، هو أبو عثمان سعد (أو سعيد) بن أحمد بن ليون التجيبى (ت ٧٥٠/١٣٤٩) (١) ، وكان يحكى عنه أن رجلا من كبراء المغرب رأى رجلا مفرط الطول فقال لمن حضره : « لو رآه ابن ليون لاختصره » (٢) ، إشارة إلى شغفه باختصار الكتب .

ويظهر أن همم الناس ولا سيما الأمراء والكبراء منهم كانت قد فترت عن تجشم مئونة القراءة الكثيرة ، وكانت تريد اليسر والسهولة ، وتكفل لهم مؤلفون مثل ابن ليون وابن سماك بتقديم هذه المادة الميسورة ينتقونها من هنا وهناك مع توخى أشد الاختصار : « فاجتمع منها زهرات يانعة ، لفنون الأخبار جامعة ، بديعة الوضع ، مجنبة من الطول ، فيها استبصار لذوى العقول » .

ولعل مما يشير إلى إلحاح فكرة الاختصار على المؤلف ويدل على التزامه بها — وربما كان فى ذلك أيضاً اعتذار عن ذلك الإسراف فى هذا المنزع ودفاع عنه — ما يذكره فى الزهرة الأولى من أنه لما كثرت « الحكمة » اختصرها الحكماء الأولون فى ٤٠٠,٠٠٠ كلمة ، ثم أتى جيل آخر من الحكماء فاختصروها فى ٤٠٠٠ كلمة ، وما زالت الأجيال التالية تختصر تلك الكلمات حتى انتهوا بها إلى أربع .

---

(١) عن ابن ليون انظر ابن الخطيب : الكتيبة رقم ٢٤ ص ٨٦ ؛ المقرى : نفح الطيب ٥/٥٤٣ — ٦٠٣ ؛ أحمد بابا التنبكتى : نيل الابتهاج ص ١٢٣ — ١٢٤ .

(٢) المقرى ٥/٥٤٣ — ٥٤٤ .

— ٧ —

مصادر « الزهرات » ومادتها :

لم يشر المؤلف إلى المصادر التى استمد منها مادة « الزهرات » ، وما كان ليفعل ذلك مَنْ عَمِد إلى مثل ما عمد إليه من الاختصار والتخفف . ومن الواضح أن مثل هذه الكتب لا يمكن أن تقدم جديداً ، إذ هى ليست إلا ثمرة قراءات من هنا ومن هناك . على أننا رجعنا إلى المظان التى يمكن أن يكون ابن سماك نقل عنها ، فرأينا معظمها من كتب الأدب والتاريخ العامة مثل عيون الأخبار وغيره . ولسنا نظن المؤلف قد رجع إلى المصادر الأصلية ، إذ أن كثيراً من تلك الكتب المؤلفة فى الشرق قد استوعبته الكتب الأندلسية من أمثال « العقد » لابن عبد ربه و « بهجة المجالس وأنس المجالس » لابن عبد البر النمرى و « سراج الملوك » لأبى بكر الطرطوشى ، وقد كان فى وسع المؤلف أن يرجع إلى أمثال هذه الكتب دون أن يجشم نفسه مشقة استقراء المصادر الشرقية الأصيلة .

هذا فيما يتعلق بالمادة المشرقية فى الكتاب ، وهى تؤلف الجزء الأكبر منه ، إذ تبلغ اثنتين وستين زهرة من مجموع الزهرات المائة . وغلبة الأخبار المشرقية على الكتاب لا تخلو من دلالة ، فالمسلمون فى غرناطة فى ذلك العصر الذى تقلصت فيه دولة الإسلام وأحاط بها أعداؤهم ملحين عليهم بالحرب وتنقص الأطراف كانوا أشد شعوراً بالحاجة إلى الارتباط بعالم إخوانهم المسلمين فى المشرق . وكأن المؤلفين الغرناطيين فى إحساسهم بوقع المحنة على بلادهم واشتداد الخطر المتربص بها — كانوا يودون أن ينبهوا مواطنيهم إلى ضرورة التطلع إلى ذلك التراث الإسلامى العربى الذى يربط بينهم وبين بلاد الشرق . ومن هنا كان اتجاه ابن سماك إلى ضرب الأمثال من سياسة عظام خلفاء الشرق

الإسلامى من أمثال الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ثم معاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز من خلفاء بنى أمية ، ثم من بعدهم من خلفاء بنى العباس مثل أبى جعفر المنصور والمهدى والرشيد والمأمون ، ومن كبار رجالات الدولة الإسلامية مثل عمرو بن العاص والحجاج الثقفى والبرامكة وعضد الدولة البويهى ونور الدين محمود بن زنكى وجمال الدين الإصبهانى ، أو من أئمة العلماء والمتصوفة من أمثال معروف الكرفى وشقيق البلخى وحاتم الأصم وبرهان الدين البلخى . ولا يعدم المؤلف رمزاً يتمثل فيه الارتباط بين حضارة وطنه الأندلسى والتراث الإسلامى القديم ، وهو شخصية الصحابى الكبير سعد بن عبادة الخزرجى الأنصارى الذى يورد ابن سماك دعاءً له (الزهرة ٩٩) وابنه قيس بن سعد الذى يورد عنه خبراً يصور مروءته وكرمه (الزهرة ١٩) ، وحديث المؤلف عن هذين الصحابيين مقصود له مغزاه السياسى ، فملوك بنى الأحمر أصحاب غرناطة من سلالة هذا الصحابى الجليل قيس بن سعد بن عبادة . وكأن ابن سماك يود أن يُذَكِّر مواطنيه الأندلسيين بفضل هذه الذرية الصالحة ويحثهم على التمسك بولاء ملوكهم النصريين الذين أعز الله بهم كلمة الإسلام آخراً ، كما نصرها بسلفهم أولا . ولهذا فإنه يدعو فى تقديم كتابه للسلطان النصرى « ذى الملك الأعز والسلطان الأحمى ، سليل الخلفاء الخزرجيين والملوك الصيد » .

أما المادة الأندلسية فى الكتاب — وهى ما ذكرنا لا تتجاوز ثمانيا وثلاثين زهرة من مجموع الزهرات المئة — فإنها تستحق منا وقفة خاصة ، وسنورد فيما يلى ملاحظاتنا عليها :

١ — أول ما يستوقف الباحث هو أن معظم أخبارها يدور حول خلفاء الأندلس الأقدمين ورجالاتهم الذين برزوا فى شئون السياسة والحرب وتدبير الدول . وتبدو من إيراد المؤلف لتلك الأخبار رغبته فى تذكير قرائه الأندلسيين

بماض مجيد ينبغى عليهم أن يعتزوا به ويتأملوا مظاهر العظمة فيه وفى الرجال الذين صنعوه : نرى ذلك فى الخبرين المتعلقين بموسى بن نصير ومآثر أبنائه والحديث عن الأمم التى حاربها ، ثم فى ذكر إضفاء أبى جعفر المنصور لقب « صقر قريش » على غريمه عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وفى الحديث عن جزالة الحكم بن هشام ورباطة جأشه فى موقفه إزاء ثورة الربض ، وعن وصيته لابنه وهو مُشْرِف على الموت ، وعبد الرحمن بن الحكم الأوسط وكرمه وبلاغته ، والأمير محمد وحيائه ومروءته ، وذكائه وبعد غوره فى أمور السياسة كما يبدو فى خبره مع أبى اليسر الرياضى ، وعبد الرحمن الناصر وتواضعه مع وزرائه ورجال دولته ثم حسن تدبيره للدولة ومعرفته بمواقع من تحسن الصنيعة عنده من أفراد رعيته ، وفى ذلك الحديث العام عن سياسة خلفاء بنى أمية ورسوم دولتهم كما نرى فى كلامه عن تحول الأندلسيين فى أيامهم من الأوزاعية إلى المالكية ، وإقامتهم دار السكة ، والمسائل الكبرى التى كانوا يولونها جل اهتمامهم ، ثم عن وزرائهم ورجال تدبيرهم من أمثال أمية بن عيسى بن شهيد وهاشم بن عبد العزيز . ولا تخلو الزهرات من استرجاع ذكرى جهود بعض عباقرة الأندلس الأقدمين فى ميادين العلم والكشف مثل الحديث عن مغامرة عباس بن فرناس فى إحدى المحاولات الأولى للطيران .

كذلك نلاحظ إلحاحاً على ذكر أخبار المنصور بن أبى عامر الذى اختصه المؤلف وحده بتسع زهرات صور لنا من خلالها جوانب من شخصيته : فى كرمه وتفضله على طالبى عرفه ، وفى تواضعه وعفوه عند مقدرته ، وفى هيبته وشدة عقابه ، وفى عدله وذكائه وضبطه لأمور دولته . ويرسم المؤلف بذلك صورة مذهبة للحاجب العامرى يختلط فيها الواقع التاريخى بألوان التصور الشعبى الأسطورى . ومثل هذه الصورة يمكن أن تلقى ضوءاً على الحالة النفسية لمسلمى غرناطة فى ذلك العصر الذى كانوا يستشعرون فيه الخطر من زوال دولة

الإسلام فى الأندلس على المدى البعيد ، فكأنهم كانوا يشخصون بأبصارهم وأرواحهم إلى أيام « منصور » الأندلس الذى بلغت فيه دولة المسلمين من القوة السياسية والعسكرية ما لم تبلغه من قبل قط . كان شعب غرناطة فى ذلك الوقت أحوج ما يكون إلى تمثل دروس ذلك التاريخ الأندلسى القديم وإلى استحضار فترات العظمة والقوة فيه . وكان عمل المؤلفين فى تذكيرهم بتلك الدروس ضربا من استحثاث الهمم الفاترة واستنهاض العزائم الخائرة .

ويدلنا على ذلك أن المؤلف لم يستكثر من أخبار الأندلس بعد انقضاء الدولة العامرية ، فهو لم يورد من عصر ملوك الطوائف والمرابطين إلا خمسة أخبار : اثنان منها متعلقان بالمتوكل بن الأفطس ملك بطليوس وحفيد المعتمد ابن عباد ملك اشبيلية ، والثلاثة الباقية تدور حول أمراء غرناطة الزيريين : زاوى بن زيرى مؤسس الدولة ، وابن أخيه حباسة بن ماكسن ، ثم باديس ابن حبوس ملك غرناطة ، وهى أخبار نستشف منها شجاعة هؤلاء الأمراء ذوى الأصل البربرى وأنفتهم وتمسكهم بحياة الجندية وصرامتهم المنتهية إلى حد القسوة والفظاظة ، ولا شك فى أن المؤلف حينما ذكر هؤلاء الأمراء البرابرة إنما اعتبر سير حياتهم جزءاً من تاريخ غرناطة « القومى » الذى ينبغى أن يكون ماثلا فى تأليف لأديب « غرناطى » مهدى إلى سلطان غرناطة فى أيامه . وكلامه عن هؤلاء وإن كان فيه إعجاب بما اتسموا به من بأس وشجاعة يخلو من المودة والحب .

وآخر العصور التى اتخذ ابن سماك منها مادة لبعض « زهراته » هو عصر الموحدين ، ونصيبه من الكتاب ثلاثة أخبار واحد منها متعلق بابن سعيد الأندلسى وإن كان الخبر نفسه بعيداً عن بيئة الأندلس فهو فى وصف مجلس الوزير المصرى جمال الدين بن يغمور ، والخبر الثانى متعلق بمحاورة بين

يعقوب المنصور الموحدي وأحد كتابه الأندلسيين ، والثالث متعلق بتلك الفصاحة الجعجاعة لأبي جعفر بن سعيد وهو يساق إلى الموت (١) .

ونلاحظ أن المؤلف لم يقدم لنا شيئاً من أخبار غرناطة فى عصره . ولعل فى ذلك شعوراً كامنا فى قرارة نفسه بأن عصره لم يعد عصر العبقريات الخلاقة التي حفلت بها عصور الأندلس الأولى ، أو لعله كان يريد أن يجنب نفسه التورط فى ذكر أخبار قد لا تقع موقع القبول من بعض قرائه .

٢ — من ناحية أخرى نلاحظ أن الكثرة الغالبة من أخبار الأندلس التى اقتطف لنا المؤلف بعض طُرَفها تدور حول محور الحرب والجهاد . وهذا أيضاً يتفق مع روح العصر الذى كانت حيـاة مسلمى الأندلس فيه رهينة بقدرتهم على حماية أنفسهم من ذلك الخطر الذى كان حصاره محدقاً بهم آخذاً بمخنقهم . وما أكثر ما نجد المؤلفين الأندلسيين فى القرن الثامن يلحون على هذه الحقيقة : فبلادهم هى الثغر الأقصى للاسلام ، وبقاء المسلمين فيها متوقف على استعدادهم للرباط والجهاد . ومؤلف الزهرات نفسه يصف وطنه فى تقديم كتابه بأنه « الجهادى » ، ولابن الخطيب أستاذ ابن سماك رسالة مشهورة نقلها المقرى يجعل فيها للجهاد على الحج مزية وفضيلة (٢) . ولهذا لم يكن من الغريب أن يضرب مؤلف « الزهرات » أمثلة كثيرة يتمدح فيها بالشجاعة ورباطة الجأش . نرى ذلك فيما ساقه عن الحكم الربضى والمنصور بن أبى عامر وقواده ، وفى قصص الشجاعة التى يورد منها ذلك الخبر الجديد المتعلق بالفارسين الصنهاجيين

---

(١) نود أن نشير عرضاً هنا إلى أن فى هذا الخبر الغريب حقاً (الزهرة ٦٤) ما يمثل طرفا من الاهتمامات الجمالية والفنية لكتاب الأندلس وبلغائها ، فقد كان يستحوذ على إعجابهم هذا الأديب الذى لم يكن له هم فى مثل هذا الموقف الرهيب إلا تصيد عدد كبير من الأسجاع يرتجلها ارتجالا ، وكأن ذلك السجع قد أصبح غاية وهدفا لجهد الأديب ، لا بأس فى أن يكد قريحته حتى تتمخض عنه وهو فى الرمق الأخير .

(٢) انظر المقرى : نفح الطيب ١ / ١٨٧ — ١٩٠

الذين وقفا بعد هزيمة « عقبة البقر » يتنازعان مع اثنين من فرسان زناتة بإزاء قنطرة كانت سبيل الجميع للفرار من قرطبة ، والطلب مُجِدٌّ من القرطبيين على البربر جميعاً للايقاع بهم ، وكل فريق يأبى أن يكون البادىء بالمرور حتى لا تلحق به بعد ذلك مَعَرَّةُ السبق إلى الفرار . وما زال ذلك التنازع حتى حل المشكلة حبوس بن ماكسن الصنهاجى الذى قدر له بعد ذلك أن يملك غرناطة (الزهرة ٨٠) . كذلك نحس بهذا الاهتمام بشئون الحرب والجهاد مما يورده المؤلف حول المسائل الثلاث الكبرى التى كانت تشغل بال خلفاء بنى أمية فى الأندلس (الزهرة ٨٣) ، ومما يذكر أنه من بين تلك المسائل الثلاث اثنتين تتعلقان بشئون الحرب هما : قيادة الثغر الأعلى بسرقسطة ، ثم قيادة أسطول المرية . وغلبة التفكير فى أمور الحرب وتدبيرها هى التى أملت على ابن هذيل المؤلف المعاصر لابن سماك كتابين يفردهما لهذا الموضوع هما : تحفة الأنفس ، وحلية الفرسان .

٣ — نلاحظ أيضاً فى الكتاب — على قلة المادة الأندلسية فيه — تمدحا بالقومية الأندلسية واعتزازاً بها ، بل ونلمح فيه من طرف خفى إشارات إلى ما كان الأندلسيون يعتقدونه من فضيلة السبق لإخوانهم وجيرانهم أهل المغرب . لقد ظل الأندلسيون منذ أن دخل المرابطون بلادهم نجدة لهم واستنقاذاً للاسلام فى أرضهم يحسون بكثير من الغضاضة لخضوعهم لسلاطين المغرب على عهد المرابطين ثم الموحدين ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يعترفون على مضض بفضل أهل المغرب عليهم فإنهم كانوا لا يكفون عن التمدح ببلادهم وبماضيها الحضارى على نحو لا يخلو من التعريض بجيرتهم من أهل المغرب كلما سنحت الفرصة لذلك . ونضرب مثلا لهذه النزعة بما كتبه الأدباء الأندلسيون عن المرابطين وما يشيع فى هذه الكتابات من رنة حزن وأسى حينما يتحدثون عن خلع يوسف بن تاشفين لملوك الطوائف على الرغم من اعترافهم بفساد حكم هؤلاء

الملوك ، أو بما سطره بعض مؤلفيهم فى باب المفاضلة بين العدوتين مثل رسالة الشقندى فى فضل الأندلس .

أما هذا العصر الذى كتب فيه ابن سماك وهو فترة حكم محمد الغنى بالله فقد رأينا كيف بدأ النفوذ المغربى فى الانحسار عن الأندلس بعد أن ظل ماثلا قوياً منذ قيام دولة بنى الأحمر ، وكان من أجلى مظاهر ذلك ما أشرنا إليه من إلغاء منصب « شيخ الغزاة » الذى كان دائماً قاعدة للتدخل المرينى فى شئون الأندلس ، بل رأينا الأوضاع لا تلبث أن تنعكس ، فتصبح غرناطة هى صاحبة الكلمة العليا فى المغرب . وقد أدى ذلك إلى بروز هذه العصبية الأندلسية وتوقد جذوتها من جديد ، نرى ذلك فى كثير من كتابات الأندلسيين خلال القرن الثامن مما تبدو فيه روح الاستطالة على المغاربة والتعريض بهم . حتى ابن الخطيب أستاذ ابن سماك — وهو الذى لجأ إلى المغرب فاراً من الأندلس — لم ير بأساً فى أن يكتب هناك مقامته « مفاخرات مالقة وسلا » ، وهو ينتهى فيها بطبيعة الحال إلى تفضيل المدينة الأندلسية على أختها المغربية فى أسلوب لا يخلو من النقد اللاذع والقسوة الجارحة (١) .

أما كتاب « الزهرات المنثورة » فلم يكن بدوره بدعاً فى ذلك الاعتداد بالقومية الأندلسية والتفاخر بتراثها الحضارى فى مختلف الميادين ، ولا فى تلك الوخزات التى تنطلق بين حين وحين من الأشواك الكامنة فى ثنايا زهراته موجهة للمغاربة . وإذا كان المؤلف يعترف فى بعض ما أورده من أخبار بشجاعة فرسان البرابرة وشدة بأسهم وأنفتهم من الفرار حتى بعد الهزيمة كما رأينا فى النص الذى أشرنا إليه من قبل (الزهرة ٨٠) ، أو باحتقارهم لحياة

---

(١) قام بنشر هذه المقامة الدكتور مختار العبادى فى كتابه « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس » ص ٥٧ — ٦٦ ؛ انظر كذلك تعليق الدكتور العبادى على هذه المفاخرة فى تقديمه لهذه المجموعة ص ١١ .

الدعة ولمناصب الوزارة (الزهرة ٨١) ، أو بهذه العدالة الصارمة القاسية من جانب باديس بن حبوس (الزهرة ٧١) — فإن حديثه لا يخلو من سخرية بأولئك المحاربين البربر وعدم تعودهم على النعمة لما جرت عليه حياتهم السابقة قبل وفودهم على الأندلس من شظف وضيق معيشة ، كما نرى فى أخبار المنصور بن أبى عامر مع بعض أولئك القواد من أمثال وانزمار بن أبى بكر البرزالى (الزهرة ٢٩) وأبى الناس بن صالح البربرى (الزهرة ٣٠) . ولا ينسى المؤلف فى هذين الخبرين التعريض ببكاءة أولئك القواد وقلة نصيبهم من الثقافة ، حتى إنهم ليخاطبون مولاهم المنصور بن أبى عامر « بكلام يضحك الثكلى » . وهذه من التهم القديمة التى طالما رددها الأندلسيون فى عصبيتهم الذميمة عن كثير من أمراء المغاربة ورجالاتهم ، مما نرى له مثلا فيما كتبه الشقندى عن يوسف بن تاشفين [١] . كذلك نجد من مظاهر هذا الاستعلاء الأندلسى فى الكتاب ما يذكره المؤلف فى معرض الكلام عن ثورة الربض (الزهرة ٧٥) من تمدح بفضل المهاجرين الربضيين على المغرب وعلى مدينة فاس ، إذ يقول : « وبهم عمرت تلك العدوة وكثر أهلها وتمدنت » . كذلك نشعر لديه برنة حزن وأسى فى حديثه عن الهزيمة التى أوقعها زاوى بن زيرى الصنهاجى بعبد الرحمن المرتضى وجنوده الأندلسيين تحت أسوار غرناطة (الزهرة ٩٥) وعن غلبة البربر على البلاد بعد ذلك فى مثل قوله : « وجرت بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس مصيبة أنست ما قبلها . ولم يجتمع لهم جمع بعد ، وأقروا بالإدبار ، وباءوا بالصغار ، والأمر لله من قبل ومن بعد » [٢] .

---

(١) رسالة الشقندى حسب ما نقله المقرى فى النفح ٣ / ١٩١

(٢) لا يهمنا فى هذا المقام إن كانت هذه العبارة وأمثالها من قول مؤلف « الزهرات » أو من قول المؤرخ الذى نقل عنه ، فالشاهد هنا هو مجرد إيرادها الذى لا يخلو من دلالة لها مغزاها .

ويلوح لنا أن ما فى مثل هذه العبارات من تعريض لم يأت بمحض الصدفة ، بل كان شيئاً مقصوداً . وحتى لو فرضنا أن شرط التعمد غير متوفر فلا يخلو الأمر من أن تكون تلك العبارات مما يجرى على ألسنة الأندلسيين مصورة إحساسهم الدفين المستقر فى وعيهم الباطن .

٤ — أما قيمة هذه المادة الأندلسية التى أوردها المؤلف لنا فى زهراته فهى متفاوتة ، والحقيقة هى أن كثيراً من هذه المادة كان معروفاً من قبل ، وهذا هو دائماً شأن الكتب التى لا يبدو جهد صانعيها إلا فى جمع مادتها واختيارها من مصادر سابقة . ولكن هناك أخباراً تعد جديدة حقا ، لا لأن المؤلف كان أكثر أصالة فيها منه فى غيرها ، وإنما لأنه نقلها عن مصادر تعد اليوم فى حكم المفقودة . ونذكر من هذه الأخبار تلك الحكاية التى يرويها حبوس بن ماكسن حول أنفة الفرسان البربر من الفرار ، وخبر ابن عياش البرشانى مع المنصور الموحدى وهو يقدم لنا صورة من المعاملة المتسامحة الكريمة التى كان يلقاها أهل الذمة ولا سيما اليهود من جانب الدولة الموحدية ، وخبر المناصب الثلاثة التى كانت شغل خلفاء بنى أمية الشاغل ، وخبر باديس بن حبوس مع ابن عمه الذى اغتصب امرأة أحد القرويين الغرناطيين وما أوقعه باديس به من عقوبة ، وبعض الأخبار الجديدة عن عبد الرحمن الناصر . هذا فضلا عن بعض التوقيعات الأندلسية النادرة .

وهناك أخبار كانت معروفة من قبل ، إلا أن مؤلف « الزهرات » أضاف إليها تفاصيل جديدة لها قيمتها وخطرها ، مثل الخبر المتعلق بالسكة فى الأندلس ، والخبر الخاص ببناء الثوار الربضيين لعدوة الأندلسيين فى فاس ، وما استطرد إليه من بناء فاس الأول على يد إدريس الأول بن عبد الله بن الحسن بن الحسن العلوى فى سنة ١٧٢ هـ. (٧٨٩ م.) . ففى هذا النص حسم للخلاف الطويل حول تاريخ بناء فاس القديمة ، وهل كان فى أيام إدريس الأول أو ابنه

إدريس الثانى ، ومثل ذلك النص الفريد الذى تضمن وصية الحكم بن هشام لابنه عبد الرحمن الأوسط ، وهو نص لا نجده فى أى مصدر قديم آخر ، اللهم إلا قطعة من كتاب « المقتبس » لابن حيان كانت فى حوزة ليفى بروفنسال ، وكان الأستاذ محمد عبد الله عنان قد اطلع عليها ونقل منها ، ويظهر أن تلك القطعة أصبحت الآن فى عداد الكتب المفقودة . والتشابه بين النصين يدل على أن مؤلف الزهرات قد رجع إلى مصادر قديمة موثوق بها .

وقد تبين لنا أن كثيراً من الأخبار الأندلسية التى أوردها ابن سماك حول أمراء الأندلس وخلفائها الأمويين والمنصور بن أبى عامر ثم ما يلى هذه الحقبة فى عصر الطوائف لابد أن تكون مما اعتمد فيه المؤلف على « التاريخ الكبير » لأبى مروان ابن حيان بشطريه « المقتبس » و « المتين » ، فروح أسلوب ابن حيان فى هذه الأخبار واضحة على نحو لا تخطئه العين ، هذا على الرغم من أنه لم ينص على مصادر النقل . ويدلنا هذا على أن كتب ابن حيان كانت حتى ذلك الوقت (النصف الثانى من القرن الثامن) كثيرة التداول فى أوساط المثقفين فى غرناطة .

٥ — على أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن أخبار المؤلف الأندلسية كانت كلها على هذا المستوى من الصحة والضبط والتنزه عن الخطأ . ولن نحاسبه هنا على بعض الأخبار ذات الطابع الأسطورى مثل تلك المحاورات بين سليمان بن عبد الملك وموسى بن نصير ، فهذه الأخبار تنتمى إلى ذلك التراث الشعبى من الأساطير التى أصبحت هالة تحف باسم فاتح الأندلس العظيم أيان ذكر اسمه فى الشرق أو الغرب ، أو مثل ما نقله من حوار بين معاوية بن أبى سفيان وذلك المعمر الحضرمى « أمد بن أبد » (الذى يبدو الافتعال حتى فى اسمه) . وإنما نعنى بعض أخطائه فى التفاصيل التاريخية ، مثل قوله إن المسلمين ظلوا يحكمون إقريطش حتى فتح النصارى لبيت المقدس ، أو ذكره لعيسى بن دينار

بين تلاميذ مالك بن أنس الأندلسيين ، أو قوله فى الحديث عن هزيمة عبد الرحمن المرتضى على يد زاوى بن زيرى إن منذر بن يحيى التجيبى كان صاحب بلنسية ودانية وإن سليمان بن هود كان صاحب سرقسطة والثغر الأعلى . وقد علقنا على هذه الأخطاء فى مواضعها ، ورددناه فيها إلى ما رأينا أنه الصواب .

— ٨ —

ابن سماك صاحب « الزهرات »
هل هو مؤلف « الحلل الموشية » ؟

كنا قد ذكرنا فى مستهل هذا التقديم أن للصديقة الكريمة ماريا خيسوس روبييرا بحثاً عنوانه « حول من يحتمل أن يكون مؤلفا لكتاب الحلل الموشية » (١) وأن هذا البحث وثيق الصلة بكتاب « الزهرات المنثورة » وبمؤلفه ابن سماك . ونشرع الآن فى معالجة هذا الموضوع الذى عادت فيه الباحثة لإثارة مشكلة قديمة بقيت حتى الآن بغير حل ، وهى مشكلة نسبة كتاب « الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية » ، الذى ظل الباحثون حتى اليوم يعدونه لمؤلف مجهول .

وكتاب الحلل الموشية من المصادر التاريخية المهمة ، وهو تأريخ مفصل للدولة المرابطية ثم لصدر الدولة الموحدية حتى نهاية خلافة عبد المؤمن بن على ، ثم يتحول بعد ذلك إلى رواية شديدة الاختصار تستعرض دولة الموحدين حتى نهايتها ثم تقتصر بعد ذلك على سرد لأسماء سلاطين بنى مرين حتى أيام أبى تاشفين عبد الرحمن بن عمر ، وتقف عند سنة ٧٨٣ هـ. (١٣٨١ م.) ، وهى

(١) María Jesús Rubiera: Sur un possible auteur de la chronique intitulée Al-Hulal al-mawšiyya fī ḏikr al-ajbār al-marrākušiyya, en II Coloquio Hispano-Tunecino, pp. 143-146.

السنة التي فرغ فيها المؤلف من الكتاب . ومن هذا الكتاب مخطوطات عديدة أحصى منها مترجم الكتاب إلى الإسبانية الأستاذ أمبروسيو أويثى ميراندا عشرة وإن كان بعضها قد اختفى الآن (١) . وقد عرف المستشرقون الأوربيون هذا الكتاب وانتفعوا منه منذ زمن بعيد ، بل قام بترجمته إلى الإسبانية أحد الباحثين الإسبان خلال القرن الثامن عشر ، واستفاد من هذه الترجمة بل ونقل منها صفحات كثيرة المستشرق كوندى J. A. Conde فى تاريخه للحكم العربى فى اسبانيا الذى صدر فى مستهل القرن التاسع عشر . غير أن النص العربى لم ير النور لأول مرة إلا فى سنة ١٣٢٩ هـ. (١٩١٠) فى تونس (منسوباً على سبيل الخطأ إلى ابن الخطيب) ، ثم أعاد نشره الأستاذ علوش فى الرباط سنة ١٩٣٦ .

ومع أن الكتاب يعد مصدراً رئيسياً لا يستغنى عنه من يكتب عن المغرب أو الأندلس فى أيام الدولتين المرابطية والموحدية فإنه لم يطرح أحد بصفة جادة مسألة نسبة الكتاب ، واكتفى كل من انتفعوا منه بأن يذكروا أنه مجهول المؤلف . فالمخطوطات الكثيرة التى عثر عليها له لا تحمل اسم المؤلف . على أن المؤرخين المغاربة المحدثين يتفقون على نسبة الكتاب إلى أديب مالقى يدعى أبا عبد الله محمد بن أبي المعالى بن السماك العاملى وعلى أن هذا الأديب الأندلسى كان حيا فى أواخر القرن الثامن الهجرى (٢) . والتقط ليفي بروفنسال

---

(١) Ambrosio Huici Miranda: Al-Ḥulal al-mawšiyya, Crónica árabe de las dinastías Almorávide, Almohade y Benimerín, traducción española, Tetuán, 1951, p. 14.

(٢) انظر مقال الدكتور أحمد مختار العبادى : دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ١٩٦٠ ص ١٣٩ — ١٥٨ . وقد أورد الدكتور العبادى ثبتا بهؤلاء المؤلفين المغاربة الذين نسبوا الكتاب إلى « ابن السماك العاملى » (فى الأصل العامرى وهو تحريف) :

— سليمان الحوات : البدور الضاوية فى مناقب الزاوية (الدلائية) ، مخطوط بخزانة =

هذا الخبر فأشار إليه فى كتابه عن « مؤرخى الشرفا »[١] ، غير أن كل الباحثين المحدثين أعرضوا عن هذه النسبة ولم يولوها أى اهتمام .

على أن شخصية الأديب المالقى الذى يحمل ابن سماك قد استوقفت نظر بعض الباحثين ، وكان أولهم الأستاذ برونشفيج الذى نشر بحثاً طريفاً حول كتاب « الحلل » ، وحاول أن يتقصى فيه شخصية هذا الأديب ، إلا أنه لم يعرف إلا واحداً عاش فى القرن السادس الهجرى هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سماك وهو بطبيعة الحال لا يمكن أن يكون مؤلف الكتاب[٢] . هذا مع أن الأستاذ بوسك فيلا كان قد نشر قبل ذلك بحثاً وافياً حول أسرة بنى سماك انتهى فيه إلى شخصية محمد بن أبى العلاء بن سماك الذى كان كاتباً فى ديوان الإنشاء على أيام السلطان النصرى محمد الغنى بالله[٣] .

وظل الأمر كذلك حتى وقعت للباحثة الصديقة ماريا خيسوس روبييرا تلك النسخة الكاملة التى أشرنا إليها من مخطوط « الزهرات المنثورة » المحفوظة فى الخزانة العامة بالرباط وعليها اسم مؤلف الكتاب : « محمد بن أبى العلاء بن

= الرباط رقم D. ٢٦١ ورقة ١٨ .

— محمد بن عبد الله بن الموقت المسفيوى المراكشى : السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ، ٢ / ١٧٧ — ١٧٩ (ط. حجرية بفاس) .

— عباس بن ابراهيم المراكشى : الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، ١ / ٢٣ (ط. فاس ١٩٣٦) .

— عبد السلام بن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى (ط. تطوان ١٩٥١) ص٥٥ - ٥٦ . راجع مقال الدكتور العبادى المذكور ص ١٣٩ والحاشية ١ .

(١) Lévi-Provençal: Les Historiens des Chorfa, pp. 385-386, note 4, Paris 1922.

(٢) R. Brunschvig: Grenade et le Maroc Marinide, Arabic and Islamic Studies in honor of Hamilton A. R. Gibb, Leiden, 1965, pp. 147-155.

(٣) J. Bosch Vila: Los Banū Simmāk de Málaga y Granada, Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos, XI, 1962, pp. 21-37.

وهو البحث الذى أشرنا إليه من قبل ونبهنا إلى أننا لم نتمكن من الاطلاع عليه والانتفاع منه (راجع ما سبق ص ٣ ، حاشية ٤) .

سماك » ، فعكفت على دراسة شخصية هذا المؤلف ، وتمكنت — فى جهد جدير بكل تقدير — من الكشف عن أنه هو نفسه الذى ترجم له ابن الخطيب فى « الكتيبة الكامنة » (ص ٢٩٩ — ٣٠١) وأنه لا بد أن يكون ابناً لذلك الكاتب الذى كشف عنه بوسك فيلا فى بحثه السابق ، وتلميذاً نجيباً من تلاميذ ابن الخطيب (١) .

وكان من توفيق هذه الباحثة أنها عادت للربط بين اسم مؤلف « الزهرات » واسم ذلك المؤلف الذى اتفق كثير من مؤرخى المغرب على نسبة كتاب « الحلل الموشية » إليه ، وهو محمد بن أبى المعالى بن السماك (أو سماك) المالقى ، فرجحت أن الاسمين لشخص واحد ، أى أن مؤلف « الحلل » هو نفسه صاحب كتاب « الزهرات » ، وعرضت بعد ذلك الحجج التى استندت إليها فى هذا الترجيح :

١ — التشابه فى الاسم والنسب . ولا عبرة هنا بأن كنية والد مؤلف الزهرات « أبو العلاء » على حين أن كنية والد المؤلف الذى نسب « الحلل » إليه « أبو المعالى » ، فاللفظان مشتقان من أصل واحد ويمكن أن يخلط النساخ بينهما بسهولة .

٢ — أن كلا من الكتابين قد ألفه كاتب كان يعمل فى ديوان السلطان النصرى محمد الغنى بالله فى تاريخ لاحق لوفاة ابن الخطيب (سنة ٧٧٦/١٣٧٤) ، وينص كلاهما فى مقدمة كتابه على أن أسرته قديمة السابقة فى خدمة ملوك بنى الأحمر ، وهذا ينطبق تماماً على أسرة بنى سماك .

٣ — المقارنة بين الكتابين تكشف لنا عن اتفاق لا يمكن أن يكون بمحض الصدفة . فكتاب الزهرات موضوع بهدف سياسى هو تمجيد الدولة

---

(١) Mª. Jesús Rubiera, op. cit., pp. 144-145.

التى كان المؤلف يعمل فى خدمتها والإشادة بصاحب هذه الدولة (محمد الغنى بالله) ، وكتابه مزيج من الأخبار التاريخية والأساطير ، وهذا ما ينطبق أيضاً على كتاب « الحلل » .

٤ — الشخصيات التى يعرضها لنا كتاب « الزهرات » هى دائماً من الخلفاء أو الملوك أو الأمراء الذين عرفوا بخصالهم المحمودة من حكمة وعدالة وشجاعة وغير ذلك من الفضائل ، وكثير من حكايات الزهرات يدور حول شخصيات أندلسية عظيمة ، إلا أن للمغاربة فى هذه الحكايات نصيباً بارزاً ، وقد تعمد المؤلف أن يسبغ عليهم هالة من العظمة أيضاً ، وذلك تحقيقاً لهدف سياسى كان يسعى إليه السلطان النصرى محمد الغنى بالله خدمة لسياسته « الافريقية » . وهذا الهدف أيضاً هو الذى يكمن فى صفحات « الحلل » .

٥ — ويجمع بين الكتابين أيضاً خلوهما من الأخبار المتعلقة بتاريخ الدولة النصرية المعاصر ، بل ومن الأخبار الخاصة بالسلطان محمد الغني بالله نفسه ، مع أنه هو الذى طرز الكتابان باسمه . فالمؤلف سياسى بارع ، وهو لذلك يكتفى بذكر أخبار الماضى البعيد التى يأمن معها مغبة التورط فى قول شىء قد تعود عاقبته وخيمة فى الغد ، فهو يعرف مدى تقلب السياسة ، ويدرك بثاقب نظره ما كانت عليه دولة بنى الأحمر من ضعف وعدم استقرار ، ويقدر أن عدو الأمس قد يصبح سلطان الغد ، فهو لذلك يلتزم الحذر ، وإذا أراد أن يدعو لواحد من الطامعين فى عرش بنى مرين فلتكن دعوته فى رفق وأناة وتستر ، وليموه عنها بالحديث عن الأمجاد المغربية الماضية على أيام المرابطين والموحدين .

هذه هى الحجج التى ساقتها الباحثة ماريا خيسوس روبييرا فى ذكاء وقدرة على التأويل والاستنباط . على أننا بعد أن أتممنا تحقيق كتاب « الزهرات » وقمنا بدراسة مقارنة بينها وبين كتاب « الحلل » فى ضوء هذه الملاحظات

التى قدمتها لنا الباحثة الإسبانية رأينا أن المسألة قد تتطلب مزيداً من الدراسة ، وأظن أن إنعام النظر فى الكتابين سوف ينتهى إلى نتيجة تتفق مع ما وصلت إليه الدكتورة روبييرا ، وإن كانت لى تحفظات على بعض ما ساقته من حجج .

أما ما ذكرته من أمر التشابه فى الإسم والنسب ومن كون كلا المؤلفين منخرطا فى خدمة السلطان محمد الغنى بالله ، ومن الاتفاق فى تاريخ تأليف الكتابين فأعتقد أن كل ذلك مقنع تماماً ، وهو وحده يكفى لترجيح نسبة « الحلل » إلى نفس المؤلف الذى كتب « الزهرات » . وأما ما ذكرته الباحثة فى الفقرتين الرابعة والخامسة فهو مالا يسهل التسليم به . فقد رأينا من عرضنا للمادة الأندلسية فى الكتاب أن المؤلف فى تمجيده لخلفاء الأندلس وأمرائها وحكامها لا يسند مثل هذه المآثر للشخصيات المغربية ولا يحيطها بتلك الهالة من العظمة التى أرادت الباحثة أن ترى فيها تحقيقاً لهدف سياسى وخدمة لسياسة إفريقية كان محمد الغنى بالله يسعى لتنفيذها . بل إننا رأينا الكتاب تعبيراً واضحاً عن قومية أندلسية فيها كثير من الاستعلاء على المغاربة ، وقد رأينا فى بعض الحكايات التى يرويها ابن سماك تعريضاً خفيا بقادة البربر لا يخلو من التجريح والسخرية ، ولكنه يتلطف فى إيراد ذلك ويسوقه فى عفوية بريئة الظاهر وكأنه لم يقصد إليه قصداً . وقد حاولنا فى الصفحات السابقة أن نعلل لهذه الظاهرة ، وهى فى نظرنا ترجع إلى أن غرناطة محمد الغنى بالله خلال تلك السنوات التى ألف فيها كلا الكتابين : « الحلل » و « الزهرات » كانت تحس بقوتها إزاء بلاد المغرب وتدل بهذه القوة ، بل إننا نحس كأن هؤلاء الأدباء الغرناطيين المشتغلين بخدمة السلطان النصرى قد أسكرتهم خمر هذه العظمة التى كانت تشعلها دولتهم آنذاك بإزاء المغرب الذى كانت الفتن والحروب الأهلية قد مزقته ، فإذا بهذا الاعتداد القومى الذى اتسم به الأندلسيون دائماً يتحول إلى ضرب من الغرور .

ومن هنا فإنا نخالف الباحثة فى هذه الناحية ولا نعتقد أن فى الكتابين ما يشعر بخوف المؤلف أو حذره ، أو توجسه من إمكان انقلاب الدولة ، وإنما نرى فى خاتمتى الكتابين شعوراً طاغيا بالتفاؤل ، وتعبيراً عن هذا الشعور فى خفة ومرح : صاحب « الزهرات » يرى فى بلده أعظم بلاد الإسلام ويعد عصر سلطانه الغنى بالله « خير الأعصار » ، ومؤلف « الحلل » يرى أن الأندلس بفضل سلاطينها النصريين قد عادت إلى خير عصورها ولم تعدم منهم ناصرها ولا منصورها (١) .

ومع مخالفتنا للصديقة ماريا خيسوس روبييرا فى هذه الجزئية ، فإن ما ذكرناه هو فى النهاية تأييد لرأيها فى تأكيد التشابه الواضح بين كتابى « الزهرات » « الحلل الموشية » ، وهو تشابه يجعلنا أكثر اقتناعا بصحة هذا الرأى الذى يرجع إليها فضل طرحه ، وهو أن أبوة الكتابين يمكن أن تنسب لمؤلف واحد : هو محمد بن أبى العلاء محمد بن سماك العاملى .

وتبقى فى النهاية شبهة صغيرة ، هى أن كنية مؤلف الزهرات كما أوردها ابن الخطيب هى « أبو القاسم » ، على حين أن كنية المؤلف الذى نسب إليه « الحلل » هى « أبو عبد الله » . ولكن هذه الشبهة يمكن أن تتبدد إذا ذكرنا أن كثيراً من الأندلسيين كانوا يحملون أكثر من كنية . ونضرب لذلك مثلا بعالم مالقى أيضاً ذى شهرة واسعة هو السهيلى صاحب كتاب « الروض الأنف » فقد عرف بثلاث كنى فى وقت واحد : أبى القاسم وأبى زيد وأبى الحسن (٢) .

---

(١) قارن خاتمة كتاب الزهرات بخاتمة الحلل الموشية ص ١٥٨

(٢) انظر ترجمة السهيلى فى التكملة لابن الأبار ، رقم ١٦١٣ (ط. كوديرا) ، والديباج المذهب لابن فرحون ص ١٥١

— ٩ —

الزهرات المنثـــورة
ومن انتفع منه من المؤلفين المتأخرين :

لم يعرف هذا الكتاب من المؤلفين القدماء إلا المقرى الذى نقـل سبعاً من زهراته فى « نفح الطيب » كما أشرنا إلى ذلك من قبل . أما فى عصرنا الحاضر فإن المخطوطة الوحيدة المعروفة من الكتاب — قبل أن تكتشف النسخة الأخرى الكاملة فى الخزانة العامة بالرباط — كانت ملكا خاصا للمستشرق الفرنسى الأستاذ ليفي بروفنسال . ولهذا فقد كان هو الوحيد الذى استطاع أن ينتفع منه فيما نشر من أبحاث منذ سنة ١٩٣٢ . ونورد فيما يلى بياناً بالمواضع التى استفاد فيها الأستاذ بروفنسال فى مؤلفاته من هذا الكتاب :

١ — جاءت أول إشارة له إلى كتاب « الزهرات » فى كتابه « إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر L'Espagne Musulmane au Xème Siècle. Institutions et Vie Sociale, Paris, 1932. (ص ٨٥ — ٨٦) فى معرض حديثه عن اهتمام أمراء بنى أمية وخلفائهم فى الأندلس بمنصب قاضى الجماعة . فقد انتفع فى هذا الموضع بمـا جاء فى الزهرة رقم ٨٣ حول شواغل الأمويين الثلاثة (وهى فضلا عن منصب قاضى الجماعة : قيادة الثغر الأعلى بسرقسطة وقيادة الأسطول بالمرية) .

كذلك انتفع بروفنسال فى نفس الكتاب من الزهرة رقم ٨٥ عند حديثه عن إنشاء دار السكة فى قرطبه على عهد عبد الرحمن بن الحكم « الأوسط » (انظر ص ٧٥) .

٢ — وعاد بروفنسال إلى الاستفادة من التفاصيل الواردة فى الزهرة رقم ٧٥ حول ثورة الربضيين فى مقاله عن بناء فاس واختلاف المؤرخين حوله . إذ اعتمد على ما جاء فى تلك الزهرة فى تحديد البناء الأول للعاصمة المغربية القديمة بتاريخ سنة ١٧٢ هـ . ، وذلك فى كتابه L'Islam d'Occident, Paris, 1948, pp. 1-41 (انظر المقال الأول من الترجمة العربية التى قام بها لهذا الكتاب الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى ، القاهرة ١٩٥٨) .

٣ — وانتفع بروفنسال بعد ذلك من جديد بمادة هذا الكتاب فى تأريخه الكبير للأندلس حتى سقوط الخلافة . فقد أشار إلى جملة من أخبار المنصور ابن أبى عامر ذات الطابع القصصى مما أورده صاحب « الزهرات » ولا سيما ما نقله عنه المقرى فى النفح (انظر كتابه Hist. de l'Esp. Mus., II, 197) ونقل عنه بعض التفاصيل الجديدة التى أوردها المؤلف فى الزهرة رقم ٩٥ حول هزيمة المرتضى على يد زاوى بن زيرى (II, 331) ، وكذلك فى حديثه عن نظام قضاء الجماعة فى قرطبة ، إذ عاد إلى استخدام ما ورد فى الزهرة ٨٣ حول هذا المنصب . وذلك فى الجزء الخاص بالنظم من تاريخه (III, 136).

— ١٠ —

مخطوطتا « الزهرات » ومنهجنا فى التحقيق :

ويبقى فى النهاية وصف المخطوطتين اللتين توفرتا لنا من كتاب « الزهرات » :

١ — الأولى ، وهى التى رمزنا لها بحرف ا فهى مخطوطة الخزانة العامة بالرباط ، وهى ضمن مجموع يضم معها بعض الرسائل الأخرى ، وتقع من هذا

المجموع بين صفحتى ١١٢ و ١٧٤ ، وهى مكتوبة بخط مغربى واضح يتميز بالجمال ويحيط بكل صفحة إطار تأنق الناسخ فى تسطيره .

وتشتمل الصفحة على واحد وعشرين سطراً ، وفى كل سطر نحو من عشر كلمات . وقد اتخذنا هذه النسخة أصلا لأنها أكمل من نسخة ليفى بروفنسال ، كما أنها فى الوقت نفسه جيدة عنى الناسخ بمقابلتها وضبطها . إلا أن النص ينقطع فيها قبل النهاية بنحو عشرة سطور .

٢ — الثانية وهى التى رمز لها بحرف ب ، وقد كانت ملكا للأستاذ ليفى بروفنسال ثم آلت إلى المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بعد وفاته فى سنة ١٩٥٦ ، والمخطوطة منتزعة بدورها من مجموع يضم بعض الرسائل الأخرى ، وتقع فى خمس عشرة ورقة من حجم متوسط (طول الورقة ٢٠ سم وعرضها ١٤ سم ، والمسطرة ١٧ × ١٢ سم ، وفى كل صفحة نحو ٢٠ سطراً فى المتوسط ، ويبلغ متوسط عدد الكلمات فى السطر ١٦ كلمة) .

وفى نهاية الكتاب تاريخ نسخه وهو أواخر ربيع النبوى سنة ست وسبعين وألف بعد الهجرة (١٠٧٦) (وهو يوافق أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر سنة ١٦٦٥) .

والكتاب بخط مغربى قليل النصيب من الجمال والعناية ولكنه واضح بشكل عام ، كما أن الكتابة فى جملتها صحيحة وإن كان فيها بعض الأخطاء .

وعيب هذه النسخة كما ذكرنا هو أنه وقع فيها خرمان كبيران : الأول من آخر الزهرة ١٥ حتى أول الزهرة ٣١ ، والثانى من الزهرة ٤٢ حتى الزهرة ٧٣ . أى أن الذى ذهب من الكتاب أقل قليلا من نصفه .

ونضيف إلى ذلك أننا اتخذنا من الزهرات التى نقلها المقرى فى نفح الطيب أصلا آخر استأنسنا به فى المقابلة .

وقد كان عملنا فى تحقيق هذا النص يقوم على مقابلة الأصلين المخطوطين وتسجيل المفارقات بينهما مع اختيـار القراءات الصحيحة ، وعندما استقام لنـا النص عملنا على مراجعته على مقابلة أخباره بكل ما استطعنا الوصول إليه من المصادر المختلفة ، مع الترجمة لجميع الأعلام والأعلام الجغرافية وغير ذلك ممـا يقتضيه إخراج النص على خير صورة ممكنـة .

ومن الله نستلهم الهداية وبه نستعين ؟

محمود على مكى

مصر الجديدة ، نوفبر ١٩٧٨

[112] بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا[1] محمد وآله وصحبه[2] وسلم

— * —

الحمد لله ذى العظمة والكبرياء ، المالكِ لما ذَرَا فى الأرضِ والسماء ، الحيِّ القيوم المبدِئِ المعيدِ ، المنفردِ فى مُلْكِه بالحكم والتدبيرِ ، والمتعالىِ عن اتخاذ الصاحبة والولد والنظيرِ ، فالأوهام تعجزُ عن تصويره ، [١ ب] والأذهان تكل عن التحديد ، الذى جعل هذه الأمة المحمديَّة خيرَ أمَّةٍ أُخرجَتْ للناس ، وفضَّلها[3] على كثير من الأمم المختلفة الألسنة والأجناس ، بشهادتى[4] الرسالة والتوحيد .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى بعثه فى الأميين رسولا من أنفُسِهم ، واصطفاه فى نخبة العرب من أَنْفَسِهِمْ ، وأنزل عليه مُحْكَمَ وحيه الكريم وقرآنه المجيد . وأمده بالملائكة المسومين فما خالفته فئة إلا كان غالِبها ، وزُوِيَتْ[5] له الأرض فرأى مشارقها ومغاربها ، وسيبلُغُ ملكُ أمته ما زُوِىَ له منها من الدانى والبعيد . به جَمَعَ الكلمةَ وكانت بِدَداً ، ونَسَخ الضَّلالة بالهدى ، وفرَّق بين المحالف والمخالف بالوعد والوعيد .

---

(١) فى ب : مولانا .
(٢) زيادة عن ا .
(٣) فى ب : وفضلهم .
(٤) فى ب : بشهادة .
(٥) فى ا : زويت .

والرضا عن آله وصحبه (١) الباذلين مُهَجَهُمْ فى قتال الطوائف الباغية [113] ، وجهاد الأمم العاتية ، ذات العدة والعديد . حتى انقادت الخلائق ، واستقامت الطرائق ، وطاع كل جبار عنيد . فما دَرَجُوا للدار الآخرة ، بما أسلفوه من الهِمَم الفاخرة ، إلا وقواعد الإيمان قد أقرُّوا قرارها على مبنًى وثيقِ التشييد .

والدعاءُ لهذا المقام العَلِيِّ الأسْمَى ، ذى المُلْكِ الأعز والسلطان الأحْمَى ، سليل الخلفاء الخَزْرَجِيِّين والملوك الصِّيد . بصلة العز [٢ ا] والظهور ، وصلاح كافة الأمور ، ودوام النصر والتأييد . وقرة العين فى الأهل والملك ، ومن ينتظم فى هذا السلك ، من ولد وحفيد (٢) .

أما بعد ؛ فإن فى الاطِّلاَع (٣) على أخبار المُتَقَدِّمين ، ومن سلف من خيار المسلمين لَمَسْلاَةً للنفس (٤) ، واستجلابا لحصول (٥) الأُنْسِ ، لما يتخلَّلُ ذلك من نوادر الأخبار ، ويفيد من المواعظ والاعتبار ، ولما يشتمل عليه من ضروب الفوائد ، ويُوقِظُ إليه من الهداية إلى جميل السِّيَرِ وكريم المحامد ، لا سيما أخبار الملوك والأمراء ، والحجاب والوزراء ، فأخبارهم تَعْمُرُ مجالس الأشراف ، وللنفوس إلى تعرفها تَطَلُّعٌ واستشراف ، ولهممهم عنها سؤالات ومباحث ، واستشهاد بما جرت به الكوائِنُ والحوادث ، فسِيَرُ الكبارِ والأجواد ، يميل إلى تَعَرُّفِها كل فؤاد ، ويتشوف منها على تباين السجايا وتفاوت الهمم ، وتنبئ عما صدر من تصرف كثير من الأمم (٦) .

---

(١) فى ب : وصحبه .
(٢) « من ولد وحفيد » انفردت بها ا .
(٣) فى ب : للاطلاع .
(٤) « لمسلاة للنفس » انفردت بها ب .
(٥) فى ب : بالحصول .
(٦) « من الأمم » انفردت بها ا .

فَجَمَعْتُ فى هذا المرسوم من نُكتِ أخبارهم الغريبة ، ونوادرهم العجيبة ، وتوقيعاتهم المختصرة القريبة ، ما ربما يُسْتَحْسَنُ مسموعُه ، ويندر فى كل كتاب وقوعه ، أضفتُ كلَّ شكلٍ منها إلى شكله ، [114] وضَمَمْتُ الفرعَ إلى أصله ، ضَمَّنْتُه منها كل حكايةٍ لطيفة ، وحَلَّيْتُه بكل طريفة ، فاجتمع منها زهرات يانعة ، لفنون الأخبار جامعة ، بديعة الوضع مجنبة من الطول ، فيها استبصار لأرباب العقول ، [٢ ب] فَمُتَأَمِّلُهُ يشرف منه على روض دَوْحُهُ العلم والمعارف ، وزَهْرُهُ تَعَرُّفُ مناقبِ الأجوادِ وسِيَرِ الخلائف ، وثمرته الأنس الباعث للاهتداء بِهَدْيِ السلف السالف .

ولما كان الفعل للجود يبرزه ، وجب أن يوسم[١] بسمة تختص به وتميِّزه ، فسميته بكتاب « الزهرات المنثورة ، فى نكت الأخبار المأثورة » ، اسم طابق لفظه[٢] معناه ، وزهر يُتشوَّفُ إلى جناه . بَلَغَت فى الإحصاء إلى مائة زهرة ، هى عنوان على غُرَرِ السِّيَرِ وطُرَّة .

وعلى أى حال كان ، فإنما يشرِّفه شرفُ من له جُمِع ، وإلى خزانته الشريفة رُفِع ، إمامِ الهدَى ، وغمامِ النَّدى ، وقامعِ العِدَى ، محيى العلم المنَقِّى لبضاعته ، المشرِّفِ لأهل صناعته ، ظلِّ الله وخليفةِ الملِكِ الحقِّ ، حاملِ الكلِّ وكافلِ الخلقِ ، الذى لا إمام فى الأرض يعدله ، ولا خليفة لله على الناس سواه ، المبـاركُ وطنه الجهادىُّ مثواه ، ملجأ أهل هذه الملَّة ، جدُّ الأمراء السعداء ووالد الملوك الجِلَّة ، والبدرُ الذى زَيَّن منهم أفق الملك بالنجوم والأهِلَّة ، الملكُ العادل ، الجوادُ الباذل ، الهمامُ الباسل ، العالم الكامل ، مولانا أمير المسلمين ، وعماد الدنيا والدين « الغنى بالله المنصورُ بِعَوْنِ الله أبو عبد الله » ابن موالينا الملوك المجاهدين ، والأئمة المهتدين ، أدام الله للمسلمين

---

(١) فى ا : يرسم .
(٢) فى ب : اسمه .

بركةَ أيامهم ، وأبقى عليهم بهجةَ مُقامهم ، ومتّعهم بانفساح مدتهم ، ودوام [115] خلافتهم ، ولا قطع عنهم مألوفَ حلمهم ومعهود [١٣] رأْفتهم ، إنه وليٌّ قريب ، سميع مجيب .

على أننى — وإن جئتُ بها فى معرض الاستطراف(١) ، وانتخبتُها من محاسن الأجواد وسِيَرِ الأشراف — فمجلسه العلىُّ الشريف لا تورد عليه غريبة ولا نادرة ، إلا وهى موجودة فيه وحاضرة ، وبِسِيَرِهِ الجميلة ومناقبه الحميدة تسير الأجواد ، ودون مداه تقف الملوكُ الأمجاد ، وعنده — خلّدَ الله ملكه — بكل فنٍّ جميل علم ومعرفة ، وكمالُهُ الملوكِىُّ يجلُّ عن النعت والصفة ، وأوصافُ البلغاء فى تقرير محاسنه وتعداد مفاخره غير موفيةٍ ولا منصفة ، جعل الله أيامه السعيدة تُنْسِى أيام الأوائل ، وأبقى للاسلام مدته التى هى مواقيت المحاسن وتاريخ الفضائل ، بمنِّه وكرمه .

وهذا حينُ الابتداء بالزهرات ، وتسطير الأخبارِ المتخيرات ، والله ولى الإعانةِ والتوفيق ، والهادى إلى سواء الطريق .

الزهرة الأولى :

روى أنه لما كَثُرَتِ الحكمة اختصرها الحكماء الأولون فى أربعمائة ألف كلمة ، ثم جاء جيل بعدهم وهو الجيل الثانى منهم فاختصروها فى أربعة آلاف كلمة جامعة لمعانى الأربعمائة ألف كلمة ، ثم جاء مَن بعدَهم فردوها إلى أربعمائة جامعة أيضاً لمعانى أربعة آلاف كلمة(٢) ، ثم جاء الإسلام فردوها إلى أربعين كلمة جامعة لمعانى أربعمائة ، ثم جاء من بعدهم فردوها إلى أربع كلماتٍ فيها

---

(١) فى ا : الاستعطاف ، وفى ا : الاستظراف ، وهو محرف عما أثبتنا .
(٢) فى ا : أربعمائة آلاف ، والسياق يقتضى ما جاء فى ب .

معانى الأربعين ، فقالوا : أَطِع الله على قَدْرِ حاجتك إليه ، واعْصِهِ على قدر طاقتِك على عذابه ، واطلُبِ الدنيا [٣ ب] على قدر مَكْثِك [116] فيها ، واطلب الآخرة بقدر بقائك فيها . ثم اختاروا أربع كلمات من أربعة[١] كتب : من التوراة : من قَنِع شبع ، ومن الإنجيل : من اعتدل نجا ، ومن الزبور : من سكت سَلِم ، ومن القرآن : « ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراطٍ مستقيم[٢] » .

الزهرة الثانية :

جلس أنو شروان يوما للحكماء ليأخذ من آدابهم ، فقال لهم وقد أخذوا مراتبهم من مجلسه : دُلُّونِى على حكمةٍ فيها منفعةٌ لخاصَّةِ نفسى وعامَّةِ رعيتى . فقال له بُزُرْجُمِهر[٣] : أيها الملك ، أنا أجمع لك ذلك فى اثنتى عشرة كلمة . قال : هات . ما هُنَّ ؟ فقال : الأولى ، تقوى الله فى الشهوة والغضب والهوى فاجْعَلْ ما عرض من ذلك كله لله لا للناس ؛ والثانية ، الصِّدْقُ فى القول والوفاء بالعِدَاتِ والشروط والعهود والمواثيق ؛ والثالثة ، مشورةُ العلماء فيما يحدث من الأمور ؛ والرابعة ، إِكْرَامُ العلماء والأشرافِ وأهلِ الثغور والقوّادِ والكتاب والخَوَلِ ؛ والخامسة ، التَّعَهُّد للقضاة والفحصُ عن العمال محاسبةً عادلةً ومجازاة المحسنِ منهم بإحسانه والمسىء على إساءته ؛ والسادسة ، تعاهُدُ أهل السُّجونِ

---

(١) فى ب : أربع .
(٢) القرآن الكريم ، سورة آل عمران آية رقم ١٠١
(٣) بزرجمهر بن البختكان الحكيم الفارسى ، كان وزير كسرى أبرويز المتوفى على ما يقول النويرى سنة اثنتين وثلاثين قبل الهجرة (٥٩٠ م.) ، وقد أضاف النويرى أن بزرجمهر كان وزيراً لكسرى أنوشروان وأن كسرى هذا هو الذى قتله . وهناك كثير من أقواله وحكمه وأخباره فى « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، والعقد الفريد لابن عبد ربه والبيان والتبيين للجاحظ (راجع فهارس هذه الكتب وانظر كذلك النويرى : نهاية الأرب ١٥ / ٢٢٨ — ٢٢٩) .

بالعرض لهم فى الأيام فيُسْتَوْثَقُ من المُسِيء ويُطْلَقُ البرىء ؛ والسابعة ، تعاهُدُ سُبُلِ الناس وأسواقهم وأسعارِهم وتجارهم ؛ والثامنة ، حسنُ تأديب الرعية على الجرائم وإقامة الحدود ؛ والتاسعة ، إعدادُ السِّلاح وجمعُ آلاتِ الحروب ؛ والعاشرة ، إكرامُ الوَلَدِ والأهل والأقارب وتفَقُّدُ مصالِحهم ؛ والحادية عشرة ، إذْكاء [٤١ ا] العيون فى الثُّغُور لعلم ما يُتخوَّفُ فتؤخذ أُهبته قبل هجومه ؛ والثانية عشرة ، تفقد الوزراء والخول والاستبدالُ لذى الغِشِّ منهم . فأمر أنوشروان أن يكتب هذا بالذهب [117] ، وقال : هذا كلام فيه جميع أنواع السياسة الملوكية (١) !

الزهرة الثالثة :

قال أَنوشِرْوَان : الناسُ ثلاثُ طبقاتٍ تسوسهم ثلاثُ سياسات : طبقةٌ من خاصة الأحرار تُسَاسُ باللطف واللِّين والإحسان (٢) ، وطبقةٌ من خاصة الأشرار تساسُ بالغِلظة والعُنف والشِّدَّة ، وطبقة من العامة تساس بالغلظة واللين لئلاَّ تُحرجَهم الشدةُ ويبطرهم اللين (٣) .

الزهرة الرابعة :

قال بعض الحكماء : إن السلطانَ لا يقرِّبُ الناس لقرْب آبائهم ولا يُبْعِدُهم لبُعْدِهم ، ولكن ينظر إلى ما عند كل واحدٍ منهم ، فيقرِّبُ البعيد لنفعه

---

(١) ورد نص هذه الزهرة بحروفه تقريباً فى كتاب أبى الحسن على بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسى : « عين الأدب والسياسة ، وزين الحسب والرياسة » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٥٧ / ١٩٣٨ ص ١٣٠ — ١٣١

(٢) فى ب : بالعطف واللين .

(٣) ورد أيضاً هذا النص فى كتاب ابن هذيل المذكور ص ٦٨

ويبعدُ القريبَ لضُرِّه ، وشبهوا ذلك بالجُرَذِ الذى هو فى البيت مجاورٌ ، فمن أجل ضُرِّه نفى ، والبازىَّ وهو وحشى ، من أجل نفعه اجْتُبِى .

الزهرة الخامسة :

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ينبغى للوالى أن يكون فيه من الشدة ما يكون ضربُ الرقابِ عنده فى الحقِّ كقتل عُصفور ، ويكونَ فيه من الرقة والحنوِّ والرحمةِ ما يُجْزِعُ من قَتْلِ عصفورٍ بغير حق .

الزهرة السادسة :

قيل لبعض الملوكِ وقد بلغ غايةً لم يبغلْها غيره من الملوك : بِمَ بلغتَ هذه الغايةَ ؟ فقال : بعفوى عند قدرتى وبِلِينى بعد شدتى ، وببذلى الإنصاف ولَوْ من نفسى ، وبإبقائي فى الحبِّ والبغض مكاناً لموضع الاستبراء[١] .

الزهرة السابعة :

كان عمرُ بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول[٢] : الأمورُ ثلاثةٌ : فما فيه رُشْدٌ [118] أتيناه ، وما فيه إثمٌ تركناه ، [٤ ب] وما فيه شبهةٌ وشكٌّ رجعنا فيه إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ورَدَدْناه إليه وإلى

---

(١) الاستبراء فى المصطلح الفقهى هو ألا يطأ المرء جارية يشتريها إلا بعد أن يتربص بها حتى يتم طهرها ، فكأنه يطلب براءتها من الحمل ، فلعل اللفظ هنا مستخدم مجازاً بمعنى أن يترك مكانا لمراجعة الرأى وطلب البراءة .

(٢) من الأقوال التى أوردها ابن عبد ربه منسوبة إلى عمر بن عبد العزيز قول شبيه بما ورد هنا فى معناه وإن اختلفت ألفاظه (العقد الفريد ٤ / ٤٣٦) .

رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما ذكر فى كتابه العزيز حيث قال : « فإنْ تنازَعْتُمْ فى شيءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرسول[1] » .

الزهرة الثامنة :

توقف الخليفة أبو جعفر المنصور أياماً عن الخروج إلى الناس ، فقالوا : هو عليلٌ ، فكثَّروا القول ، فدخل عليه وزيره الربيعُ[2] فقال : يا أمير المؤمنين ، أدام الله لك فى البقاء ، إن الناس يقولون . قال : وما يقولون ؟ قال : يقولون[3] إن أمير المؤمنين عَلِيلٌ . فأطْرَقَ مَلِيّاً ثم قال : يا ربيع ، ما لنا وللعامة ؟ إنما تحتاج العامة إلى ثلاثِ خلالٍ[4] ، فإذا فُعِلَتْ لهم فما حاجَتُهُمْ : إذا أقيم لهم من ينظر فى أحكامهم ، وينصفُ بعضهم من بعضٍ ، وإذا أَمِنَتْ سبلهم حتى لا يلحقهم خوف فى ليل ولا نهار ، وإذا سُدَّتْ ثغورُهم وأطرافُهم حتى لا يصل إليهم عدوُّهم ، ونحن قد فعلنا ذلك كلَّه لهم ، فما حاجتهم إلينا ؟ .

الزهرة التاسعة :

كان يحيى بن خالد بن بَرْمَك[5] لا يجلسُ الناسُ فى داره إلا بين يديه ،

(١) سورة النساء آية رقم ٥٩ وفى ب : « إلى الله وإلى الرسول » .

(٢) أبو الفضل الربيع بن يونس حاجب أبي جعفر المنصور ووزيره وحاجب ابنه المهدى . توفى سنة ١٧٠ (٧٨٦/٧٨٧) . انظر فى ترجمته تاريخ بغداد للخطيب البغدادى رقم ٤٥٢١ ، ٨/٤١٤ والجهشيارى : الوزراء والكتاب (الفهرس) ووفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٢٩٤ — ٢٩٩

(٣) فى ب : يقول .

(٤) فى ا : خصال .

(٥) يحيي بن خالد البرمكى معلم هارون الرشيد ومربيه وصاحب خاتمه وهو والد الوزيرين المشهورين جعفر والفضل . توفي سنة ١٩٠ (٨٠٦) بعد نكبة الرشيد لأهل بيته عن سبعين =

فإن جلس أُدخِل الناسُ وإلا صُرِفوا من الباب ، وكان يقول[١] : على الناس أداء فروض وقضاء حقوق ، والانتظار يَمْحَقُ[٢] زمانهم ويُكْثِر تعبهم .

الزهرة العاشرة :

قال المنصور يوماً : ما كان أحْوَجَنِى أن يكون على بابى أربعةُ نفرٍ ثقاتٌ نصحاء ! قيل : يا أمير المؤمنين ، من هم ؟ قال : هم أركانُ الملكِ ولا يصلحُ الملكُ إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، فإن نقص منها واحد وَهِىَ[٣] : أما أحدُهم فقاضٍ لا تأخذه فى الله لومةُ لائم ، وأما الثانى فصاحب شرطةٍ [119] ينصف الضعيف من القوىِّ ، وأما الثالث فصاحب حرسٍ يستقصى لى ولا يظلم [١٥] الرعيَّة ، وأما الرابع — فَعَضَّ على سبَّابته أربع مرات يقول فى كل مرة آهِ آهِ ! — قيل له : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحبُ بريدٍ يكتب إلىَّ بخبرِ هؤلاء وتصرُّفِهم على الصِّحة .

الزهرة الحادية عشرة :

ذكر أن ملكا من ملوك الهند نزل به صمم ، فأصبح مُتَوجِّعاً مهتما بأمورِ المتظلِّمين وأنه لا يسمع استغاثتهم ، فأمر مناديَه ألا يلبس أحد فى مملكته

= سنة . انظر ترجمته فى تاريخ بغداد رقم ٧٤٥٩ ، ١٤ / ١٢٨ — ١٣٣ ، وجملة من أخباره فى الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٧٧ — ٢٦١ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ٥ / ٣٣٨ — ٣٥٠ ، وانظر كذلك خير الدين الزركلى : الأعلام ٩ / ١٧٥ — ١٧٦

(١) « يقول » ناقصة فى ب .

(٢) المحق هو النقصان وذهاب البركة .

(٣) فى ب : وهوى .

ثوباً أحمر إلا مظلومٌ وقال : لئن مُنِعتُ سمعى لم أُمنع بصرى ، فكان كلُّ مظلومٍ لبس ثوباً أحمر ووقف تحت قصره يكشف عن ظُلامته (١) .

الزهرة الثانية عشرة :

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ليت شعرى متى أَشْفِى غيظى : أحين أقدرُ فيقال ألا غَفَرْتَ ، أو (٢) حين أعجز فيقال ألا صَبَرْتَ ؟ (٣) .

الزهرة الثالثة عشرة :

لما أنفذ أبو بكر الصديق رضى الله عنه الأمراء إلى الشام كان مما أوصى به يزيد بن أبى سفيان (٤) وهو مُشَيِّعٌ له : إذا قدِمْتَ على أهل عملك فَعِدْهُمُ الخير اذا (٥) وَعَدْتَ ، وإذا وعدت فأنجز ، ولا تكثرنَّ عليهم الكلام فإن بعضه يُنسى بعضاً ، وأصلح نفسك يصلُح الناسُ ، وإذا قدمَ عليك رُسُلُ

---

(١) ورد هذا الخبر فى تنايا حديث طويل وقع لأبى جعفر المنصور مع رجل من أهل مكة ونقله الزبير بن بكار فى كتابه « الأخبار الموفقيات » ، تحقيق الدكتور سامى مكى العانى ، بغداد ١٩٧٢ — ص ٣٩٦ ، وانظر مثله أيضاً فى ابن قتيبة : عيون الأخبار ٢ / ٣٣٣ ، والمحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٣٤٠ — ٣٤١ (بيروت ١٩٦٠) . على أن الزبير بن بكار وغيره ينسبون الحكاية إلى ملك من ملوك الصين .

(٢) فى ب : أحين .

(٣) وردت هذه العبارة بنص ألفاظها تقريباً فى عيون الأخبار لابن قتيبة (١/٢٩٠) إلا أن المؤلف نسبها إلى عمر بن عبد العزيز لا عمر بن الخطاب .

(٤) يزيد بن أبى سفيان بن حرب بن أمية كانت له صحبة للرسول (صلعم) . وجرده أبو بكر (رضه) فى سنة ١١ هـ (٦٣٣) قائداً على إحدى السرايا الثلاث على الشام فأحرز واحداً من أول الانتصارات على جيوش الروم . ولما توفى أمير جيش الشام أبو عبيدة بن الجراح (رضه) كتب عمر بن الخطاب إلى يزيد بولاية الشام ، فظل واليا عليها حتى وفاته . ثم خلفه عليها أخوه معاوية أول خلفاء الدولة الأموية .

(٥) « إذا وعدت » ناقصة فى ا ، وقد استكملناها من ب .

عدوّك فأكرم نُزُلَهُمْ فإنه أولُ خيرِكَ لهم ، وأقلل حَبْسَهُمْ حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك ، وامنع من قِبَلك من محادثتهم ، وكنْ أنت تَلِي كلامَهُم ، ولا تجعل سرَّك مع علانيتك ، فيمرُجَ[١] أمرُك ، وإذا استشرتَ فاصدُقِ الخبر تصدُقِ المشورة ، ولا تكتم المستشار فتُؤْتَى من قِبَلَ نفسك ، وإذا بَلَغَتْكَ عن العدوِّ [120] عَوْرة فاكتمها حتى توافيها ، واستر فى عسكرك الأخبار ، وأَذْكِ[٢] عيون حراسك وأكثر مفاجأتهم فى ليلك ونهارك ، واصدُقِ اللقاء إذا لقيتَ ، ولا تجبُنْ فيجبُنَ سواك[٣] .

[٥ ب] الزهرة الرابعة عشرة :

لما توجه عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى فتح مصر والإسكندرية أمَّرهُ عمر بن الخطاب رضى الله عنه على أربعة آلاف ، على كل ألفٍ منهم رجل يقوم مقام ألف[٤] : الزبير بن العوام[٥] رضى الله عنه ، والمقدادُ بن عمرو[٦] ، وعُبادة بن الصامت[٧] ومَسْلمة بن مُخَلَّد[٨] .

---

(١) أى يختلط ويتشتت .
(٢) أى انشر .
(٣) ورد فى العقد الفريد لابن عبد ربه (١/١٢٩) خبر وصية أبى بكر (رضه) ليزيد بن أبى سفيان حينما وجهه إلى الشام وهو مشيع له راجلا بألفاظ تختلف عما ورد هنا .
(٤) ورد مثل هذا الخبر أيضاً في حسن المحاضرة للسيوطى مع ذكر هذه الأسماء نفسها (١/١٠٨) ، وتكررت الإشارة إليه فى نفس المصدر (١/١٢٠) .
(٥) أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي . من الصحابه المعروفين ، شهد فتح مصر واختط بها ولأهل مصر عنه حديث واحد ، قتل راجعاً من وقعة الجمل بوادى السباع فى سنة ٣٦ (٦٥٦) انظر السيوطى : حسن المحاضرة ١ / ١٩٩
(٦) المقداد بن عمرو الكندى ، صحابى شهد بدراً وأحداً وسائر المشاهد ، وشهد فتح فارس ومصر وإفريقية أيضاً . مات بالمدينة سنة ٣٣ (٦٥٤) . انظر حسن المحاضرة ١ / ٢٣٨ — ٢٣٩
(٧) أبو الوليد عبادة بن الصامت الأنصارى الخزرجى . كان أحد النقباء ، وشهد بدراً وسائر المشاهد ، حدث عنه أهل مصر بنحو عشرة أحاديث ، ومات بفلسطين سنة ٣٤ (٦٥٥) فى ولاية معاوية . حسن المحاضرة ١ / ٢١١
(٨) أبو معمر مسلمة بن مخلد الأنصارى . ولد عام الهجرة ، وولى إمرة مصر زمن معاوية ، واختلف فى مكان وفاته بين مصر والاسكندرية والمدينة ، وتوفى سنة ٦٢ (٦٨٢) . حسن المحاضرة ١ / ٢٣٥ — ٢٣٦

كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما يخبره بالفتح : أما بعد ؛ فإنى فتحت مدينـةً لا أقدر على وصفٍ ما فيها ، غير أنى أَصَبْتُ بها أربعة آلاف مُنْيَةً ، بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودىّ عليهم الجزية ، وأربعمائة ملك للملوك ، والسلام (١) .

الزهرة الخامسة عشرة :

كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بخبر نِيلِ مصر (٢) وذلك أن أهل مصر أَتَوْهُ فقالوا : أيها الأمير ، إن لنيلنا هذا سُنَّةً لا يجرى إلا بها . فقال لهم : وما ذاك ؟ قالوا : إنه إذا كان لِثِنْتَيْ عشرة من هذا الشهر شهرِ يونية (٣) عمدنا إلى جاريةٍ بِكْرٍ بين أبويها (٤) فأرضينا أبويْها ، وجعلنا عليها من الحُلِىِّ والثياب أحسن ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذا النيل . فقـال لهم عمرو بن العاص : إن هذا لا يكونُ فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما قبله . فأقاموا ثلاثة أشهر (٥) لا يجرى قليلا ولا كثيراً حتى هَمُّوا بالجلاء ؛ فلما رأى ذلك عمرو بن العـاص كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليه عمر رضى الله عنه : قد أصبت ، إن الإسلام يهدمُ ما

---

(١) وردت هذه الرسالة أيضاً فى ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٨٢ ، وفى السيوطى : حسن المحاضرة ١ / ١٢١ — ١٢٢

(٢) ورد هذا الخبر كله فى النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (١ / ٣٥ — ٣٦) مع اختلافات طفيفة .

(٣) فى النجوم الزاهرة « بؤونة » بدلا من « يونيه » ، وعلى كل حال فإن هذا الشهر القبطى يوافق حزيران (يونية) من الشهور المسيحية التى كان استخدام تقويمها شائعاً فى الأندلس .

(٤) « بين أبويها » ناقصة فى ب .

(٥) حددها ابن تغرى بردى بالشهور القبطية : بؤونة (= حزيران = يونيه) وأبيب (= تموز = يوليه) ومسرى (= آب = أغسطس) .

قبله ، وقد بعثتُ إليك ببطاقة ، فألْقِها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى .
فلما وصل الكتاب إلى [121] عمرو بن العاص فتح البطاقة فإذا فيها : « من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيلِ مصرَ . أما بعد ، فإن كنت تجرى من قِبَلِكَ فلا تجر ، وإن كان الله[١] الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يُجرِيَك » .

فألقى عمرو بن العاص البطاقة فى النيل ، وجرى بإذن الله . وانقطعت تلك العادة عن أهل مصر .

الزهرة السادسة عشرة :

خرج عمر بنُ الخطاب رضى الله عنه ذات يوم من منزله ، فلقيه حُذَيْفَةُ بن اليمان[٢] رضى الله عنه ، فقال له : كيف أصبحت ياحذيفة ؟ قال أصبحت أُحبُّ الفتنة ، وأكره الحق ، وأقول بما لم يُخْلَقْ ، وأشهد بما لم أر ، وأصلِّى بلا وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء . فغضب عمر رضى الله عنه غضباً شديداً ، وهَمَّ به ثم ذكر صحبته للنبى صلى الله عليه وسلم ومكانه منه ، فكَفَّ عنه .

فبينما هو كذلك إذ أقبل علىٌّ رضى الله عنه ، فرأى الغَضَبَ فى وجهه ، فقال : ما أغضبك يا أمير المؤمنين ؟ فقصَّ عليه القصة . فقال : لا يُغضِبك

---

(١) ينقطع النص فى ب بعد لفظ الجلالة . ويبدأ الخرم الذى ذهبت فيه بقية هذه الزهرة (١٥) ثم ما يليها حتى الحادية والثلاثين . ولهذا فان اعتمادنا سوف يكون فى هذه الزهرات على نسخة ا بصفتها أصلا وحيداً .

(٢) حذيفة بن اليمان العبسى من كبار الصحابة . ولد بالمدينة ، وكان له بلاء فى مشاهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وروى الكثير عن النبي وعن عمر . واستعمله عمر على المدائن فلم يزل بها حتى مات بعد مقتل عثمان رضي الله عنه وبعد بيعة الامام علي بأربعين يوماً فى سنة ٣٦ . راجع فى ترجمته الاصابة لابن حجر رقم ١٦٤٩ — ٢ / ٤٤ — ٤٥ .

الله ! أما قوله « أُحِبُّ الفتنة » فصَدَقَ ، قال الله تبارك وتعالى : « إنَّما أَمْوالُكُمْ وأولادُكُمْ فِتْنَةٌ (١) » ؛ وأما قوله « أكره الحقَّ » فإنه يكره الموت ؛ وأما قوله « أقول بما لم يُخْلَق » فإنه يتلو القرآن ؛ وأما قوله « أشهدُ بما لم أَرَ » فإنه يشهد أن لا إله إلا الله ؛ وأما قوله « أصلى بلا وضوء » فإنه يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وأما قوله إن « له فى الأرض ما ليس لله فى السماء » [فقد] صدق : له فى الأرض زوجةٌ وبنون .

فقال عمر : للهِ دَرُّكَ يا أبا الحسن ! لقد كشفْتَ عنِّى أمراً عظيماً (٢) .

الزهرة السابعة عشرة :

قَدِمَ أعرابِيٌّ على عليٍّ بن أبي طالب رضى الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، [122] لى إليك حاجة ، والحياء يمنعنى أن أذكرها لك . قال : يا أعرابيُّ ، خُطَّها فى الأرض . فخطَّ : إنى فقير . فقال لغلامه : اكسُهُ حُلَّةً . فكساه إياها . فأنشأ الأعرابى يقول : [من البسيط]

كَسَوْتَنِي حُلَّةً تَبْـلَى محاسِنُها		فسوفَ أكسوكَ من حُسْنِ الثَّنا حُلَلاَ
إن نِلتَ حُسْنَ ثنائِى نلتَ مَكْرُمَةً		ولستَ تبغِى بما قد نِلْتَهُ بَـدَلاَ
إنَّ الثنـاءَ لَيُحْيِى ذِكْرَ صاحبِهِ		كالغيثِ يُحيِى نداهُ السَّهْلَ والجبَلاَ

---

(١) سورة التغابن ، الآية ١٥ .

(٢) ما ورد فى هذه الزهرة حول تفسير علي بن أبي طالب لعمر ما أشكل عليه من نوع المناقب التى جرى الشيعة على نسبتها للامام علي رضى الله عنه ، وهى أخبار يتضح فيها الوضع والصنعة . ونحن نرى الخبر الوارد هنا فعلا فى كتب الشيعة مثل كتاب الشيخ محمد تقي التسترى : قضاء أمير المؤمنين علي بن أبى طالب ، الطبعة الخامسة عشرة ، بيروت (بغير تاريخ) ص ١٠٩ — ١١٠ . والخبر هناك منقول عن مناقب الامام علي للكنجى وتنتهى الرواية فيه إلى سعيد بن المسيب .

فقال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه : زِدهُ مائة دينار . فأعطاه إياها . فلما وَلّى الأعرابي قال له غلامه : لو دفعتها في المسلمين لأصلحتَ بها من شأنهم ! فقال : مَهْ ، لا تفعلْ ، فإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تَشَكَّرُوا لمَنْ أَثْنَى عليكم ، وإذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرِمُوه .

الزهرة الثامنة عشرة :

وَفَدَ قومٌ من قريش على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه . فقالوا : السلام عليك يا معاوية . فبَسَطَ لهم وجهه ، وألانَ قوله . فطلبوا الموادعة . فقال : يا وجوه قريشٍ . ما لكم أتيتم من مكان بعيد ، ثم لم تجعلوا بين السلام وبين الموادعة حاجة تطلبونها ؟ فقالوا : والله يا أمير المؤمنين ، ما أتيناك إلا مُفَاخِرِينَ بأحسابنا ، مباهين لك برجالنا ، مُتعزِّزين عليك بسيوفنا ، طالبين من مالكِ ، غيرَ راضينَ باليسير من نوالك . ولكنك بسطت لنا الوجه ، وألنْتَ المقال ، فاستغنيْنا بذلك عن طلبِ المالِ . فقال : إذَنْ والله لأَجْمَعَنَّ لكم بين الحُسْنَيَيْنِ ، ولأصْرِفَنَّكم بِمَا يندم من تخلف عنكم .

الزهرة التاسعة عشرة :

مرض قَيْسُ بْنُ سعد بن عبادة (١) رضي الله عنه واستبطأ عُوَّادَهُ ومن كان [123] يزوره من إخوانِهِ ، فسأل عنهم ، فقال المسؤول : إنهم يستحْيُونَ

---

(١) قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي كان هو وأبوه من كبار صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان قيس حامل راية الأنصار في مشاهد الرسول ، وشهد فتح مصر ثم ولي إمارتها للامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان مع ابنه الحسن بعد مقتله حتى صالح معاوية ، فرجع إلى المدينة ومات بها في آخر خلافة معاوية . انظر في ترجمته الاصابة لابن حجر ، رقم ٧١٨٢ ــ ٥/٤٧٣ ــ ٤٧٥ .

مما لك عليهم من الدَّيْن . فقال : قَبَّحَ الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة . ثم أمر أن يُنَادَى : من كان لقيسٍ عنده مالٌ فهو منه فى حِلّ . فَكُسِرَتْ عتبةُ داره من كثرة من دخل عليه من العُوَّادِ(١) .

الزهرة العشرون :

كان يحيى بن خالد بن برمك على ما يُعْلَم من التسرُّع لقضاء الحوائج ، والابتهاج بها . وكان أصحابه إذا رأوه منقبضاً علموا أنه لم يُسأل فى ذلك اليوم حاجة ، فبسطوه بما ينقبض به الناس من التكاليف ، وكان كثيراً ما يقول : اللهُمَّ اجعلْنَا مِمَّنْ يؤدِّى حقوقَ نِعَمِكَ بقضاء حوائج عبادك . وإذا رأى أولاده يوقِّعون فى حوائج الناس تهلل وجهه وقال : [من المديد]

وَقِّعُــوا ما دامَ خاتَــمُكُمْ فى طريقِ النفـــعِ مقبــولاَ

الزهرة الحادية والعشرون :

كان جمال الدين الإصبهانى(٢) صاحب الدولة الأتابكيَّة يوماً فى دَسْتِ وَزارتِهِ . فتكاثر النـاس على طلب الرسوم والحوائج من بين قاصٍ ودانٍ من

---

(١) ورد هذا الخبر فى كتاب « سراج الملوك » لأبى بكر الطرطوشى (ط. القاهرة ١٣١٩ / ١٩٠١) ص ٧٩ — ٨٠ . وانظر الترجمة الاسبانية التى قام بها لهذا الكتاب ماكسيميليانو ألاركون ، مدريد ١٩٣٠ — ١٩٣١ — ١ / ٣٨٠

(٢) أبو جعفر محمد بن على بن أبى منصور الملقب بجمال الدين الاصفهانى والمعروف بالجواد . كان جده أبو منصور فهاداً للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى . ولما تولى أتابك زنكى بن آق سنقر الموصل استخدم جمال الدين المذكور وقربه فولاه نصيبين ، فظهرت كفايته وعول عليه . فلما قتـل وولى بعده ابنه سيف الدين غازى بن أتابك فوض أمور الدولة إلى جمال الدين ، ولم يزل يعطى ويبذل الأموال حتى عرف بالجواد ومدحه جماعة من الشعراء منهم ابن القيسرانى الشاعر . وله فى الجود نوادر كثيرة . ولما مات مخدومه سيف الدين غازى وولى أخوه قطب الدين مودود استكثر إقطاعه ، فقبض عليه فى رجب سنة ٥٥٨ وحبسه فى قلعة الموصل ، فلم يزل مسجوناً حتى توفى فى أواخر رمضان سنة ٥٥٩ . انظر فى ترجمته وفيات الأعيان لابن خلكان ، ترجمة ٧٠٤ — ٥ / ١٤٣ — ١٤٦ ؛ والوافى بالوفيات للصفدى ٤ / ١٥٩ — ١٦١ ، ترجمة ١٦٩٦ .

أصنافٍ شتّى ، فوسِعَهُمْ بالبذلِ وبَسْطِ الوجهِ . فقام غلامٌ جميلُ الصورةِ كانَ فى آخرِ المجلسِ وأنشدَ يقول : [من الكامل]

حقاً بأنْ يُدْعَى جمالَ الدينِ والـدُّ نيـا فمنهُ كِلاهُما يَتجمَّـلُ
وَسِعَ الأنـامَ بخُلْقهِ وتحمَّلَتْ منهم صنائعُهُ الذى لا يُحْمَـلُ
كَفٌّ أبَتْ يوماً تكُفُّ عنِ النَّدَى كَرَماً ووَجْهٌ دائما يَتهَلَّـلُ
وَأَسَرُّ ما تلقـاهُ يَوْمَ سُؤالـهِ وتراه بادِى الحُزْنِ إذ لا يُسْأَلُ

فقال له الوزير : اجلِسْ باركَ الله فيكَ ، فَمَنْ تكونُ ؟ فقـال : ابْنُ زَيَّاتٍ من إصْبَهانَ . فقال : لقد أحْيَيْتَ أدَبَ ابْنِ الزَّيَّاتِ[١] . فقال له الغلامُ : وأعوذُ باللهِ من طِباعِهِ . [124] فاسْتَنْبَلَ ما أتَى به ، وأمر كاتبَهُ أن يُعْطِيَهُ بكلِّ بيتٍ مائةَ دينارٍ ، ويجعلَ ذلك رسماً له يَصِلُ إلى أَخْذِهِ فى كلِّ سنة عند حلولِ ذلك الوقتِ .

فلم يصِلْ فى السنة الثانية ، فجعلَ الوزير من بَحَثَ عنه ، فأُعْلِمَ أنّه مات . فأرسلَ المالَ إلى وَرَثَتِهِ ، ولم يَزَلْ جارياً لهم طولَ حياة الوزير .

الزهرة الثانية والعشرون :

دخل جعفر بن عثمانَ على الفضلِ بن يحيى[٢] ، فرآه يضحكُ . فقال له : ما يُضْحِكُكَ أيها الأمير ؟ فقـال : مكاتبةُ فلانٍ ، أتتْنا من غيرِ أُنْسٍ ولا

---

(١) يعنى الوزير الكاتب المشهور محمد بن عبد الملك بن أبان المعروف بابن الزيات ، وكان أبوه زياتاً فنشأ هو وقرأ الأدب وتوصل بالكتابة إلى أن وزر للمعتصم وللواثق وكان على فضله وأدبه ردىء الطباع مفرط القسوة (ولهذا استعاذ الفتى من طباعه حينما شبهه به الوزير جمال الدين) ، فلما توفى الواثق وولى المتوكل نكبه بعد أربعين يوما من ولايته ، فسجنه وعذبه حتى توفى سنة ٢٣٣ . انظر فى ترجمته وفيات الأعيان ، ترجمة ٦٩٦ — ٥/٩٤ — ١٠٣ ؛ والوافى بالوفيات ٤/٣٢ — ٣٤ ، ترجمة ١٤٨٦ .

(٢) الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى أبو العباس ، ولاه الرشيد الوزارة قبل أخيه جعفر . ولد سنة ١٤٧ ومات فى السجن حينما أوقع الرشيد بالبرامكة سنة ١٩٢ . انظر فى ترجمته وفيات الأعيان لابن خلكان ٤ / ٢٧ — ٣٦ .

وسيلةٍ إلينا . فقال له : [أيها] (١) الأمير ، تَوَهَّمَ معروفَكَ وحَسَّنَ الظنَّ بك وبتأميلك ، فكتبَ إليك وقد اكتنفه أَمْرَان ، واحتكم فيه صَنَدَان : طَمَعٌ مؤنِسٌ ، وخَوْفٌ مُؤيِسٌ ، فكن مع أكرم الأمرين وأشرفِ الأمَلَيْنِ . فقال له الفضل بن يحيى : وَدِدْتُ لو أنَّ أهلَ الأرض كاتبونى فى حوائجهم على هذه الصفة ، فأقضى حوائجَهُمْ . ثم قضى حاجة الرجل .

فقيل لجعفرَ بن عثمان : هل عرفت الرجلَ إذ قمتَ له هذا المقامَ ؟ فقال : لا والله ما عرفتُه قطُّ ، ولو قصدتُ بحضورى إخوانى خاصَّةً ما عددتُه حضوراً ، فقد قيل إن الرجلَ يُسْأَلُ عن فضل جاهِهِ كما يسأل عن فضل ماله . فقيل له : أنتَ والله سَيِّدُ زمانك . وقال (٢) :

خَلَتِ الديارُ فَسُدْتُ غَيْرَ مُسَوَّدِ ومِنَ الشقاءِ تَفَرُّدِى بالسُّؤْدُدِ

الزهرة الثالثة والعشرون :

دعا الخليفةُ أبو جعفر المنصورُ يوماً بالربيع (٣) ، فقال له : سَلْنِى ما تُرِيدُ ، فقد سَكَتَّ حتى نَطَقْتَ ، وخَفَّفْتَ حتى ثَقَّلْتَ ، وأقللتَ حتى أكثرتَ . فقال : يا أمير المؤمنين ، والله ما أَرْهَبُ بُخْلَكَ ، ولا أَسْتَقْصِرُ عُمرَكَ ، ولاَ أستصغِرُ فِعْلَكَ ، ولا أغتنم مالك ؛ وإنَّ يومى بفضلكَ لأحسنُ من أَمْسِى ، وغَدِى فى [125] تأميلى أحسنُ من يومى ، ولو جازَ أن يشكُركَ مثلى بِغَيْرِ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) البيت فى جملة أبيات من كلمة لرجل من خثعم فى حماسة أبى تمام (انظر الحماسة بشرح المرزوقى ص ٨٠٧) ونسبه ياقوت لعمرو بن النعمان البياضى (معجم البلدان ، مادة بقيع) وقد كان يكثر من الاستشهاد به الامام الفقيه المحدث سفيان بن عيينة (عاش بين سنتى ١٠٧ و ١٩٨) (انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ /٣٩٢) وكذلك الفقيه الشافعى أبو بكر الشاشى (الذى عاش بين ٤٢٩ و ٥٠٧) (انظر وفيات الأعيان ٤ /٢٧—٣٦) .

(٣) هو الوزير أبو الفضل الربيع بن يونس ، وقد مرت بنا ترجمته .

الخدمةِ والمناصحةِ لما سَبَقَنِي إلى ذلك أَحَدٌ . فقال له : صَدَقْتَ ، عليٌّ بهذا منك هو الذى أَحَلَّكَ منى هذا المحَلَّ ، وأنزلَكَ هذه المنزلة ، فسَلْنِي ما شئْتَ . قال : أسأَلُكَ أن تُقَرِّبَ عَبْدَكَ الفَضْلَ [١] ابنى وَلَوْ كَرِهَ ، وتُحِبَّه . فقال : يا ربيعُ ، إنَّ الحبَّ ليس بمالٍ يوهَب ، ولا رتبةٍ تُبذلُ ، وإنما تؤكدُه الأسبابُ . قال : يا أميرَ المؤمنين ، فاجعل له طريقاً إليه بالتفضُّل عليه . قال : صدقت الآن ، وقد وَصَلْتُهُ بألفِ ألفِ درهم ، ولم أَصِلْ بها أحداً غير عُمُومتى ، ليعلمَ ماله عندى ، فيكون منه ما يستدعى محبَّتى ، فقل لى : من أينَ سألتَ له المحبة يا ربيع وقَدَّمْتَها على غيرها من المطالبِ والمسائلِ ، وآثرتها على ما سواها من الرغائبِ والطوائل ؟ قال : لأنها مفتاحُ كلِّ خيرٍ ، ومِغْلاقُ كل شرٍّ ، تَسْتَتِرُ مع المحبة عنك عيوبُه ، وتصير عندك حسناتٍ سيئاتُهُ وذنوبه . قال : صدقت ، وقد أتيت مُرادَكَ من بابه ، وتسبَّبْتَ إليه بأنجح أسبابه .

الزهرة الرابعة والعشرون :

قال عمرانُ بْنُ شهابٍ الكاتب : استَعَنْتُ على الوزير أبى عُبَيْدِ اللهِ بْن يَسارٍ فى أمرٍ عَنَّ لى إليه ببعض إخوانِهِ . فلما قام الذى استعنتُ به قال : لولا أنَّ حَقكَ حَقٌّ لا يُجْحَدُ ولا يُضَاعُ لَحَجَبْتُ عنكَ حُسْنَ نظرى . أَظَنَنْتنى أجهلُ الإحسان حتى أُعَلَّمَهُ ، ولا أعرف موضعَ المعروفِ حتى أُعَرَّفَهُ ؟ ولو كان لا يُنالُ ما عندى إلا بغيرى لكنتُ بمنزلة البعيرِ الذلولِ ، عليه الحِمْلُ الثقيل ، إن قِيدَ انقادَ ، وإن أُنيخ بَرَكَ ، لا يملكُ من نفسه شيئاً . فقلت له : أبقاكَ الله ، معرفتُك بمواقع الصنائع أثقبُ من معرفةِ غيرك ، ولم أجعلْ

---

(١) الفضل بن الربيع بن يونس استوزره الرشيد ، وهو الذى أغراه بالبرامكة حتى نكبهم ، ولد سنة ١٤٠ وتوفى سنة ٢٠٨ ، انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، رقم ٥٢٨ — ٤/٣٧ — ٤٠) .

فلاناً شفيعاً ، وإنما جعلتُه مُذَكِّراً . فقال : وأيُّ إذكارٍ لمن رَعَى حقك أَبْلَغُ من [126] تسليمك عليه وشخوصك إليه ؟ إنه متى لم يتصفَّح المأمولُ أسماءَ مُؤَمِّليه بقلبه غُدُواً ورَوَاحاً لم يكن للأمل محلاّ ، وجرى المقدار لمؤمِّليه على يديه بما قُدِر ، وهو غيرُ محمودٍ[١] على ذلك ولا مشكور ، وما لى كتابٌ أَدرُسُهُ بعد وِرْدِى من القرآن إلا أسماء رجالِ التأميلِ بى ، وما أبيتُ ليلة حتى أعرِضَهم على قلبى . فلا تستعنْ على شريفٍ إلا بشرفِهِ ونفسه ، فإنك متى استعنتَ عليه بغيره رأى ذلك غَبْناً لمعروفه .

الزهرة الخامسة والعشرون :

وقَّع جعفرُ بْنُ يحيى بن خالدٍ[٢] لرجلٍ إلى عاملٍ له ليشغله : هذا مِمَّا تَنْهَضُ به نفسُهُ وتُقَدِّمُهُ كِفايتُه ، فإنْ لم تغلِبْ عليه بفضلِكَ غَلَبَ عليه غَيْرُكَ .

الزهرة السادسة والعشرون :

وَقَّع يحيى بن خالدٍ فى أمرِ فتًى امْتُدِح لَهُ : هذا فتًى له حُرْمَةُ الأَمَلِ ، فامتَحِنْهُ بالعملِ ، فإنْ كانَ كافياً فالسلطانُ له دُونَنا ، وإنْ لم يكُنْ كافياً فنحن له دُونَ السلطانِ .

الزهرة السابعة والعشرون :

قالَ يوماً رَجُلٌ ليحيى بن خالد : واللهِ لأنْتَ أَحْلَمُ من الأَحْنَفِ ، وأَحْكَمُ من مُعاويةَ ، وأَحْزَمُ من عبدِ الملكِ ، وأَعْدَلُ من عُمَرَ بنِ عبدِ

---

(١) فى الأصل : محدود ، وقد وضع الناسخ عليها علامة تدل على شكه فيما كتب ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(٢) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى وزير هارون الرشيد المشهور . قتله الرشيد سنة ١٨٧ فى نكبة البرامكة (انظر وفيات الأعيان ، رقم ١٣٢ — ١ / ٣٢٨ — ٣٤٦) .

العزيزِ . فقال له يحيى : والله لَعُمَيْرٌ غلامُ الأحنفِ أَحْلَمُ منى ، ولَسَرْحُونُ كاتبُ معاوية أَحْكَمُ منى ، ولأَبُو الزُّعَيْزِعَةِ صاحبُ شرطةِ عبدِ الملكِ أحْزَمُ منى ، ولَمزاحمٌ قهرمانُ عمرَ بن عبد العزيزِ أعْدَلُ مِنِّى . وما تقرَّبَ إلىَّ مَنْ أعطانى فَوْقَ حَقِّى . فَعَجِبَ مَنْ حَضَرَهُ من سرعةِ جَوابِهِ وتعديدهِ لِمَنْ لا يعرفه حتى كأنَّه قَدْ أَعَدَّ الجوابَ (١) .

الزهرة الثامنة والعشرون (٢) :

حَكَى أبو العلاء صاعِدٌ اللُّغَوِيُّ (٣) قال :

جَمَعْتُ خِرَقَ الأكياسِ والصُّرَرِ التى قبضتُ فيها صلاتِ المنصور محمد بن أبى عامرٍ ، فَقَطَّعْتُ لكافور [127] الأسودِ غُلامِى منها قميصاً كالمرقَّعَةِ (٤) وبكَّرْتُ به معى إلى قصرِ المنصورِ ، فاحتلْتُ فى تنشيطِهِ حتى طابَتْ نفسُه ، فقلتُ : يا مولانا ، لعبدك حاجةٌ . فقال : اذكرها . قلت : وصولُ غلامى

---

(١) ورد مثل هذا الخبر مختصراً فى كتاب الأذكياء لأبى الفرج ابن الجوزى ص ٥٠ وكذلك في وفيات الأعيان ٢٢٧/٦

(٢) أورد المقرى فى نفح الطيب نص هذه الزهرة الثامنة والعشرين نقلا عن كتاب «الزهرات» (٣/٨٣–٨٤) ، وهكذا توفر لنا في هذه الزهرة وما يليها مما نص المقرى على أنه اقتطفه من هذا الكتاب ما يشبه أن يكون أصلا آخر إلى جوار الأصل ا .

(٣) أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادى اللغوى وفد من المشرق على الأندلس أيام المنصور بن أبي عامر سنة ٣٨٠ هـ ، وسرعان ما أصبح من أقرب شعرائه إليه وأكثرهم اختصاصاً به . وقد لحق صاعد الفتنة البربرية فى قرطبة ، فغادرها إلى سرقسطة حيث بقى زمنا فى بلاط منذر بن يحيى التجيبى ، ثم هاجر إلى صقلية وبها قضى بقية حياته ، وتوفى سنة ٤١٧ . انظر فى ترجمته : الحميدى : جذوة المقتبس ، رقم ٥٠٩ ، ابن بشكوال : الصلة رقم ٥٣٦ ؛ ابن بسام : الذخيرة ق ٤–١/٦–١٤ ؛ المقرى : نفح الطيب ٣/٧٥–٨٤ ، ٩٥ – ٩٨ ؛ آنخل جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة الدكتور حسين مؤنس) ص ٦٦ – ٦٨ .

(٤) في ا : كالمرقة والتصويب عن نفح الطيب .

كافور إلى هنا . فقال : وعلى هذه الحالِ ؟ فقلت : لا أقنعُ بسواه إلا بحضوره بين يَدَيْكَ . فقال : أَدْخِلُوه . فمثل قائماً بين يديه في مُرَقَّعَتِهِ ، وهو كالنخلةِ إشرافاً . فقال : قد حَضَرَ ، وإنه لباذُّ الهَيْئَةِ ، فما لك أَضَعْتَه ؟ فقلتُ : يا مولاى ، هناك[1] الفائدة . اعلم يا مولاى أنك وهبتَ لى اليومَ مِلْءَ جلدِ كافور مالاً . فتهلَّل وقال : لله دَرُّكَ من شاكرٍ مستنبطٍ لِغَوَامِض معانى الشكرِ ! وأَمَرَ لى بمالٍ واسع وكسوةٍ . وكسا كافوراً أحسن كسوة[2] .

الزهرة التاسعة والعشرون[3] :

تقدَّم إلى الحاجب المنصور بن أبى عامر وانزمارُ بن أبى بكر البِرْزَالىُّ أحد جند المغاربة ، وقد جلس للعَرْضِ والتمييز ، والميدان غاصٌّ بالناس ، فقال له بكلام يُضْحِكُ الثَّـكْلَى[4] : يا مولاى ، مالى ولك ؟ ! أَسْكِنِّى فإنى فى الفَحْصِ . فقال : وما ذاك يا وانزمار ؟ وأين دارُكَ الواسعة الأقطار ؟ فقال : أخرجتنى عنها والله نعمتُك[5] ، أعطيْتَنى من الضياع ما انصبَّ عَلَىَّ منها من الأطعمةِ ما ملأ بيوتى وأخرجنى عنها ، وأنا بَرْبَرِىٌّ مُجَوَّعٌ حديثُ العهدِ

---

(١) في النفح : يا مولانا ، هنالك .

(٢) وردت قصة شبيهة بهذه في أخبار صاعد التى أوردها ابن بسام فى الذخيرة ق ٤-١ / ١٦ ؛ إلا أن صاعداً نفسه فى هذه القصة هو الذى دخل على المنصور وقد اتخذ ذلك القميص من رقاع الخرائط التى وصلت إليه من صلات المنصور ولبسه تحت ثيابه ، ولم يزل منتظراً حتى خلا به المجلس مع المنصور ، فتجرد من ثيابه إلا ذلك القميص .

(٣) ورد نص هذه الزهرة أيضاً فى نفح الطيب للمقرى (١ / ٤١٧)

(٤) فى الأصل : الثكلان ، وقد آثرنا ما ورد فى نفح الطيب .

(٥) فى الأصل : والله عنها نعتك ، وما فى النفح أصح .

بالبؤسِ (١) . أترى لى أن أُبْعِدَ القمحَ عنى ؟ ليس ذلك من رأيى . فتطلّق المنصورُ وقال : لِلّهِ دَرُّكَ من فَذٍّ عَيِيّ ! . . لَعِيُّكَ فى شكرِ النعمة أبْلَغُ عندنا ، وآخَذُ بقلوبنا من كلام كل أشْدَقَ متزيِّدٍ ، وبليغٍ متفنِّنٍ (٢) . وأقبل المنصورُ على من حولَهُ من أهــل الأندلس (٣) ، فقال : يا أصحابَنَا ، هكذا فلْتُشْكَرِ الأيادِى ، وتستدامُ النعم (٤) ، لا ما أنتم عليه من الجَحْدِ اللازم ، والتشكِّى المُبَرِّح . وأمر له بأفضلِ المنازلِ الخالية .

[128] الزهرة الثلاثون (٥) :

أصْبَحَ المنصورُ بن أبى عامر صبيحة أحَدٍ ، وكان يومَ راحَةِ (٦) الخَدَمَةِ الذين أُعْفُوا فيه من قَصْدِ الخِدْمَةِ (٧) ، فى مطر وابل غِبَّ أيامٍ مثله .

---

(١) نلمس فى هذا الخبر وما فيه من تعريض بالبربر وسخرية من عيِّهم وحداثة عهدهم بالبؤس مظهراً من مظاهر تلك العصبية الأندلسية التى كانت ترى للأندلسيين فضلا وسابقة فى الحضارة والثقافة على جيرانهم من أهل المغرب ، وهذه العصبية هى التى تفجرت أخيراً فيما يعرف باسم « الفتنة البربرية » والحرب الأهلية العنيفة التى دارت فى الأندلس على أثر سقوط الدولة العامرية .

(٢) فى الأصل : متفر ، والصواب ما ورد فى النفح .

(٣) فى الأصل : وأقبل على ما حوله من الأندلس . وقد آثرنا ما جاء فى النفح لأنه أصوب .

(٤) فى الأصل : كذا فتشكروا الأيادى واستديموا النعم ، ونص النفح أصوب .

(٥) هذه الزهرة وردت أيضاً فى نفح الطيب (١ / ٤١٧ — ٤١٨) .

(٦) هذه الكلمة ناقصة فى الأصل ، فأضفناها من النفح لأن السياق يقتضيها .

(٧) يؤكد هذا الخبر اتخاذ المسلمين فى الأندلس يوم الأحد عطلتهم الأسبوعية ، وهو تقليد قديم اتبع فى الأندلس منذ أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (حكم بين ٢٣٨ و ٢٧٣ / ٨٥٢ — ٨٨٦) ، وكان أول من سن هذا التقليد هو كاتب الأمير محمد قومس بن أنتيقان على ما يشهد ابن حيان فى كتاب المقتبس ، (بتحقيقنا ، ط . بيروت ١٩٧٣ ص ١٣٨ و ص ٥١٩ من الحواشى) فجرى رجال الدولة على هذا التقليد ، ويضيف ابن حيان أن ذلك أمر مضى فى الأندلس إلى أيامه .

فقال : هذا يومٌ لا عَهْدَ بمثلِه ، ولا حيلةَ للمواظِبين لقصدِنا فى مكابَدتِه . فليت شعرى هل شَذَّ أحدٌ منهم عن التقديرِ ، فأغرب بالبكور (١) ؟ اخرج وتأمل — يقوله لحاجِبه — فخرج وعاد إليه ضاحكاً ، وقال : يا مولاى ، على الباب ثلاثة رهط من البرازلة (٢) : أبو الناس ابن صالح ، واثنان معه ، وهم بحال من البلل إنما توصف بالمشاهدة . فقال : أوْصِلْهُمْ إلىَّ وعجِّلْ . فدخلوا عليه فى حال المَلاَّح (٣) بللاً ونداوةً . فضحك إليهم وأدنى مجلسهم ، وقال : خبِّرونى كيف جئتم ؟ وعلى أى حال وصلتم ؟ وقد استكان كل ذى روح فى كِنِّه ، ولاذ كل طائرٍ بوكرِه . فقال له (٤) أبو الناس بكلامه : يا مولانا ، ليس كُلُّ التُّجَّارِ قعد عن سُوقه ، وإذا عُذِر التجارُ على طلب الربح بالفلوس ، فنحن أعْذَرُ (٥) بإدراكِها بالبِدَر ومن غير رؤوسِ أموال (٦) . وهم يتناوبون الأسواقَ على أقدامهم ، ويُبذِلون فى قصدها ثيابهم ، ونحن نأتيك على خيلك ، ونذيل على صهواتها ملابسَك ، ونجعل الفضل فى قصدك مضموناً إذا جعله أولئك طمعاً ورجاء ، فترى لنا أن نجلسَ عن سوقِنا هذا ؟ فضحك محمد بن أبى عامر (٧) ودعا بالكُسَى والصلات ، فدفعت لهم ، وانصرفوا مسرورين بغُدْوَتهم .

الزهرة الحادية والثلاثون :

أُتِىَ أبو جعفر المنصورُ بشيخ من أهلِ الشام ، كان من بطانةِ الخليفةِ هشام بن عبد الملك ، ليسألَه عن تدبيرِ هشامٍ رحمه الله فى بعضِ حروبِه

(١) فى نفح الطيب : فى البكور .
(٢) فى النفح : ثلاثة من البرابرة ، وما فى الأصل أصح وأدق . ويعنى بالبرازلة بنى برزال .
(٣) فى الأصل : المياح ، وقد آثرنا ما ورد فى النفح .
(٤) له ناقصة فى النفح .
(٥) فى الأصل : أعذار وما فى النفح هو الصواب .
(٦) فى النفح : الأموال .
(٧) فى النفح : المنصور .

للخوارج ، فوصف له الشيخُ ذلك ، وجعل يقولُ فى أثناء كلامه : فعَلَ كذا رحمه الله ، وقال كذا رحمه الله [129] ، وجعلَ يُثْنِى عليه . فقال المنصور : قُمْ عليكَ غَضَبُ الله ! تَطَأُ بساطى وتُثْنِى على عَدُوِّى وتَترَحَّمُ عليه ؟ فقام الشيخُ وهو يقول : إنَّ نعمةَ عدُوِّكَ لَقِلادَةٌ فى عُنُقِى لا ينزعُها منه إلاّ غاسِلِى . فقال له المنصورُ : اقعُدْ يا شيخُ ، فأنا أشهدُ أنك نَهِيضُ(١) حُرَّةٍ وغِراسُ كَرَمٍ . فرجع الشيخُ وعاد فى حديثِه الأوَّلِ حتى فَرَغَ منه . فأمر له المنصورُ بمالٍ ، فأَخَذَه ، وقال : والله يا أميرَ المؤمنينَ مالى حاجةٌ إليه . ولكن لأَتَشَرَّفَ بصِلَتِكَ ، [١٦] ولقد ماتَ عَنِّى مَنْ كنتُ فى حديثه آنِفاً ، وما أحْوَجَنِى إلى الخروج لبابِ مخلوقٍ . فقال المنصورُ لجلسائه بعد خروجه : عِنْدَ مثلِ هذا تَحْسُنُ الصَّنيعةُ ، ويُوضَعُ المعروفُ ، ويُجادُ بالمصونِ ، وأَيْنَ فى عسكَرِنا مِثْلُه ؟ !

الزهرة الثانية والثلاثون :

قيل لعجوزٍ وهى تبكى عند قبر : بماذا استحَقَّ هذا منكِ ؟ فقالت : جاوَرَنا وما فينا(٢) إلا من تحِلُّ له الصَّدَقة ، وما ماتَ وما مِنَّا إلا من تجِبُ عَلَيْه الزَّكاة .

الزهرة الثالثة والثلاثون :

وقف الخليفةُ المهدِىُّ من خلفاء بنى العباس على عجوزٍ من العرب ، فقال لها : مِمَّنْ أنتِ ؟ فقالت له : من طَيِّء . فقال : ما منع طَيِّئاً أن يكون

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعله يعنى به أنه نهضت عنه أى ولدته حرة .
(٢) فى ب : فيها .

فيهم آخَرُ مثلُ حاتِمٍ (١) ؟ . فقالت له مسرعة : يا أمير المؤمنين ، الذى منعَ الملوكَ أن يكون فيهم آخَرُ مثلك !

الزهرة الرابعة والثلاثون :

رأى المأمونُ خطَّ كاتِبه محمدٍ بنِ داود (٢) ، فقال : يا محمد ، إن شاركناكَ في اللفظِ فقد فارقناكَ فى الخطِّ . فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إن من أعظمِ آياتِ النبى صلى الله عليه وسلم أنه أَدَّى عن الله رسالتَه وحَفِظَ عن اللهِ وَحْيَهُ وهو أُمِّىٌّ لا يعرفُ من فنونِ الخط فنّاً ، ولا يقرأ من سائره حرفاً ، فبقى عَمُودُ [130] ذلك فى أهله ، فهم يَشْرُفُونَ بالشَّبَهِ الكريم فى نقص الخط كما يشرف غيرهم بزيادته ؛ وإنَّ أمير المؤمنين أخصُّ الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم والوارثُ لموضعِه والمتقلِّدُ لأمره ونهيِه ، فَعَلِقَتْ به المشابهة الجليلة ، وتناهت إليه الفضيلة ، فقال المأمون : يا محمد ، لقد تركتنى لا آسَى على الكتابةِ ولو (٣) كنت أمياً .

(بقية النص فى المجلد القادم)

---

(١) حاتم بن عبد الله الطائى الذى ضربت بجوده الأمثال ، وأخبار كرمه مبثوثة فى كل كتب الأدب والأخبار والأمثال .

(٢) لم نهتد فى المصادر التى بين أيدينا إلى شخصية محمد بن داود هذا الذى ينسب إليه كونه أحد كتاب المأمون ، فاسمه لم يرد فى قائمة هؤلاء الكتاب التى أثبتها ابن عبد ربه (العقد ٤ / ١٦٥ ، ٥ / ١٢٠) ولا فى كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى . وقد وقر فى ظننا أن هذا الاسم ربما كان محرفا عن « محمد بن يزداد » ، بدلا من « . . . بن داود » ، فقد كان محمد بن يزداد فعلا أحد كتاب المأمون (العقد ٥/١٢٠) .

(٣) فى ب : وإن ، والصواب ما أثبتنا عن ا .